شرح الشواهد القرآنية فى كتاب الإيضاح

للخطيب القزوينى

(شواهد الاستعارة)

دكتور

سلامه جمعه على داود

أستاذ مساعد فى كلية اللغة العربية

جامعة الأزهر بإيتاى البارود

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنعم على عباده بتلاوة كتابه ، وأنزله روحا من أمره، ونورا مبينا ، وهدى ، ورحمة ، وبصائر ، وتِبْياناً لكل شىء ، وجعل تدبُّرَه كاشفاً لحجاب الغفلة ، ومفتاحا لأقفال القلوب ، وجعل الذكر الحكيم جديدا لا يبلى ، وجعل عطاءه لاينقطع أبدا ٠ اللهم وصل وسلِّم وبارك على من كان خُلُقُه القرآن ، سيدنا محمد النبى الأمى العربى القرشى الهاشمى ، أفضلَ صلاةٍ وأتمَّها وأكملَها وأزكاها ، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين ، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ٠ وبعد ٠

فإن للشواهد فى الدرس اللغوى مكاناً عَلِيًّا ، فهى دليلُه المصدِّق ، وناصرُه المؤيِّد ، وهى الشافعُ له ، والمُغْرِى به ، تَفْتَحُ له أبوابَ الإقناع والإمتاع ، وهو بدونها أقوال مجرَّدة ، وآراء ، ومذاهب ، لا مصدَّق لها ولا ناصر ولا مؤيِّد ولا شافع .

وكتاب الإيضاح للخطيب القَزْوِينى من أجمع كتبَ البلاغة وأقربها إلى طلاب العلم ؛ لأنه هذَّبَ قواعد البلاغة ، وقرَّبها ، وأدنى قِطافَها ؛ ولذا عُنِىَ العلماء بشرحه ، وتحرير مسائله ، وتفسير شواهده ، ولم تقم مؤلفات مفردة لخدمة كتاب فى البلاغة وشرحه كما قامت لهذا الكتاب ٠

ومن أوفى الكتب المصنَّفة فى شرح شواهد الإيضاح كتاب (معاهد التنصيص على شواهد التلخيص) للشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسى المتوفى عام ٩٦٣ هـ ، وهو سِفْرٌ نفيسٌ فى أربعة أجزاء تضم أكثر من ألفٍ وثلاثمائة صفحة ، شرح فيه الشيخ مائتين وخمسة وعشرين شاهدا ، إلا أنه قَصَرَه على الشواهد الشعرية فقط ؛ فرغب العاجز الضعيف فى أن

يكون له فى إتمام ما فات الشيخ العباسى من شرح شواهد الإيضاح نصيب، فأَلْقَى بين عينيه عَزْمَه على حسن الابتداء بشرح الشواهد القرآنية شرحاً يُنْشَرُ فى حَلَقَاتٍ تَتْرَى إن شاء الله تعالى ومدَّ فى الأَجَل .

وعُنِيَتْ هذه الحَلْقَةُ بشرح الشواهد القرآنية للاستعارة شرحاً يحرص على بيان الشاهد فى الآية ، وفقهِ كلامِ الخطيب فيه ، وبيانِ مصادرِه فى آيةٍ آيةٍ ، وما أفاد من هذه المصادر ، وما أضاف إليها ، مع إشارات للطائفَ فى الآيات تَنْزِعُ من كلام الخطيب وتَخْرُجُ من مِشكاتِه ، أو تُضَافُ إلى ما ذَكَرَ فيها ؛ فإنَّ العِلْمَ أكبرُ من أن يحيط به عالم ، والقرآن كريمٌ ؛ لكُلِّ مُتدبِّرٍ فيه جوهرةٌ مكنونةٌ بل جواهر.

وجملة الشواهد القرآنية للاستعارة فى كتاب الإيضاح اثنان وعشرون شاهدا ، وهناك ثمانية شواهد أخرى جاءت فى درس الاستعارة فى الكتاب ولم يتناولها هذا الشرح ؛ لأن الخطيب لم يستشهد بها للاستعارة ، بل لمعانٍ أخرى جرت فى سياق كلامه ، وليس فى هذه الشواهد استعارة ، وهى :

١- قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ (١) ، استشهد بها لبيان أن التجريد لا يسمى تشبيها ولا استعارة ، والتجريد فى الآية أنها جرِّدت من النار – نجانا الله تعالى منها – دارا أخرى هى دار الخلد ، مع أن النار نفسها هى دار الخلد (٢) .

---

(١) فصلت : ٢٨ .

(٢) ينظر الإيضاح مع البغية : ٣/ ١٠١ .

٢- قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ (١)، استشهد بها عند حديثه عن كون الاستعارة مبنية على ادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به ، فلا تقول : " رأيت أسدا " - تريد رجلا شجاعا - إلا وقد أدخلت الرجل الشجاع فى جنس الأسود وجعلته أسدا، وهنا ذكر أن الفعل (جعل) إذا تعدى لمفعولين كان بمعنى " صيَّر " فيفيد إثبات صفة للشيء ، فلا تقول : " جعلته أميرا " إلا على معنى أنك أثبت له صفة الإمارة.والمعنى فى الآية أنهم أثبتوا لهم صفة الأنوثة، واعتقدوا وجودها فيهم،لا أنهم أطلقوا عليهم اسم الإناث من غير اعتقاد ثبوت معناه لهم ، بدليل قوله تعالى بعدَه : ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ (٢).

٣- قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٣) ، استشهد بها عند حديثه عن كون الاستعارة مبنية على الادعاء ، فقولك : " رأيت أسدا " تريد رجلا شجاعا ، الاستعارة فيه قائمة على أن الأسد - كما ذكر السكاكى -

نوعان : مُتَعارَفٌ وهو الحيوان المفترس ، وغير مُتَعارَفٍ وهو الشجاع الذى دخل ادعاءً فى جنس الأسود . ومن البناء على هذا التنويع ما جاء فى الآية الكريمة حيث جُعِلَ المال والبنون في معنى الغنى ، كأنه قيل : يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم ؛ لأن

---

(١) الزخرف : ١٩

(٢) ينظر الإيضاح مع البغية : ٣/ ١٠٢ ، ١٠٣

(٣) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩

غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه، كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه (١).

٤- قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ (٢) ، استشهد بها عند حديثه عن الاستعارة التمثيلية فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ (٣) ، حيث شُبِّهَتْ هيئةُ من كان له قلب لا ينتفع به ولا ينظر فيما يجب أن ينظر فيه ولا يعى ما يجب وعيه بهيئة مَن عَدِمَ قلبَه جُملةً ، وفى هذا السياق ذكر الخطيب أن الإمام عبد القاهر شَدَّدَ النَّكيرَ على من فَسَّرَ القلبَ فى الآية بالعقل دون أن يحمل الكلام على المَثَل أى على الاستعارة التمثيلية ، ورفض الخطيب تفسير من قال إن المعنى : "إن فى ذلك لذكرى لمن كان له عقلٌ يَنْتَفِعُ به ويُعْمِلُه فيما خُلِقَ له من النظر " ؛ لأن تفسير القلب بالعقل ثم تقييد العقل بأنه يَنْتَفِعُ به ويُعْمِلُه فيما خُلِقَ له من النظر - عُرْىٌ من الفائدة لصحة وصف القلب بذلك بدليل قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ (٤).

٥- قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ (٥) .

٦- قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ (٦).

---

(١) ينظر الإيضاح مع البغية : ٣/ ١٠٤ ، ١٠٥ ، والمفتاح ٣٢٢ ، والكشاف : ٣/١١٨ .

(٢) الأعراف : ٧٩

(٣) سورة ق : ٣٧

(٤) ينظر الإيضاح مع البغية ٣/ ١٣٥ ، ١٣٦ ودلائل الإعجاز ٣٠٤ وأسرار البلاغة ٣٦٣ .

(٥) البقرة : ١٧ .

(٦) النحل : ٦٠ .

٧- قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ ﴾ (١).

٨- قوله تعالى : (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ) (٢) ، استشهد بالآيات الأربعة الأخيرة فى الاستعارة التمثيلية لبيان أن معنى (المَثَل) فى اللغة هو الصفة العجيبة ، والآيات ليست من باب الاستعارة التمثيلية (٣)

وكتبه

أبو أحمد سلامه جمعه على داود

بالقنفذة من المملكة العربية السعودية

فى يوم الجمعة غرة رجب ١٤٢٩ هـ

---

(١) الفتح : ٢٩ .

(٢) الرعد : ٣٥ ، ومحمد ١٥ .

(٣) ينظر الإيضاح مع البغية : ٣/ ١٣٦ ، ١٣٧ .

شرح الشواهد القرآنية للاستعارة فى كتاب الإيضاح

١- قَولُه عَزَّ وجَلَّ : " ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١) ٠

استشهد بها الخطيب للاستعارة التحقيقية العقلية ، و " التحقيقية " هى التصريحية ، سُمِّيَتْ تحقيقيةً لأن وراءها حقيقةً أى ذاتا حقيقية أو شيئا يمكن أن تشير إليه وتقول إن اللفظ استعير له ، كما فى قولك : " رأيت أسدا يحارب بسيفه " تريدا رجلا شجاعا ، فلفظ " أسد " وراءه ذات حقيقية محسوسة هو الرجل الشجاع ، ولفظ الصراط فى الآية وراءه شىء له حقيقة عقلية موجودة هو الدين ؛ ولذا فالاستعارة فيهما تحقيقية ٠ وأما " العقلية " فذلك أنه استعير الصراط وهو محسوس للدين وهو معقول ، قال الخطيب : (وأمَّا العقلىُّ فكقولِكَ : " أَبْدَيتُ نُوْراً "وأنتَ تريدُ " حُجَّةً " ؛ فإنَّ الحُجَّةَ مما يُدْرَكُ بالعَقْل من غير وَسَاطة حسٍّ ؛ إذ المفهومُ من الألفاظ هو الذى يُنَوِّرُ القلبَ ويَكْشِفُ عن الحقِّ لا الألفاظُ أَنْفُسُها ٠ وعليه قَولُه عَزَّ وجَلَّ : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٢) أى الدِّينَ الحقَّ) ٠(٣)

وهذا من قول الإمام عبد القاهر : " فمثال ما جرى على "الأصل الأول" ما ذكرتُ لك من استعارة النور للبيان والحُجَّة ، فهذا شَبَهٌ أُخِذ من محسوس لمعقول ، ألا ترى أن النورَ مشاهَدٌ محسوسٌ بالبصر ، والبيانُ والحُجَّةُ مما يؤدّيه إليك العقلُ من غير واسطة من العين أو غيرها من

---

(١) الفاتحة : ٦ ٠

(٢) الفاتحة : ٦ ٠

(٣) الإيضاح مع البغية ٣/ ٩٥ ط صبيح ٠

الحواسِّ ، وذلك أن الشَّبه ينصرف إلى المفهوم من الحروف والأصوات ، ومدلولُ الألفاظ هو الذى ينورِّ القلبَ لا الألفاظ " .(١)

والصراط : هو الطريق ، شُبِّهَ الدِّينُ الحقُّ بالطريق المستقيم فى أن كلا منهما يوصل إلى الغاية بيسر ، ثم استُعِير الصراط المستقيم له استعارة تصريحية أصلية ، وهى من إخراج المعقول فى صورة المحسوس ، لأن الاستقامة والوصول إلى الغاية فى جانب الدين أمر عقلى ، فلما استعير له الطريق المستقيم صارت رؤية استقامة الدين وبلوغه بسالكه غايته رأى العين ٠ ووراء الاستعارة أن هذا الدين لاعوج فيه ولا ضلال عن الهدف ، وأن استقامته عامة فى كل شىء : عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاقا وسلوكا ٠٠٠الخ ؛ فالمؤمن

يسأل الله الاستقامة فى كل شىء ؛ لأن الدين يشمل كل شىء ٠ ووراء الاستعارة أن المؤمن عليه أن لا يضيع عمره فى عمل بإمكانه إنجازه فى وقت يسير ومن طريق قاصد مستقيم ٠ وقوله " اهدنا " بمعنى ثَبِّتْنا على الدين الحق ، وفى التعبير عن التثبيت على الدين بالهداية إليه ابتداءً دلالةً على أن التثبيت على الدين الحق نظير الهداية إليه ابتداءً فى أن كلا منهما نعمة من الله جل جلاله ، ليستشعر المؤمن أن كلا من هدايته إلى الصراط المستقيم وتثبيته عليه نعمة تستوجب الشكر . وإذا كانت الهداية إليه انتزاعا من ربقة الكفر والضلال ، فإن التثبيت عليه استدامة له وتجديد للإيمان فى قلب المؤمن ٠والله تعالى أعلم٠

---

(١) أسرار البلاغة ص ٦٦ ت محمود شاكر ط الخانجى ٠

وذكر شيخنا أبو موسى من عطاء هذه الاستعارة أنها تدل على أن الدين طريق واضح ، يصف منهجا بينا ، ويحدد المعالم تحديدا مضيئا ، فالموقن به لايبحث عن خطة يمضى فى حياته عليها ، وإنما الطريق بين يديه ، وهو طريق مستقيم ، وماعليه إلا أن يمضى ، وقد تكررت هذه الاستعارة فى القرآن لتنفى عن هذا الدين التلبيس والغموض الذى يثقل كثيرا من الديانات . (١)

واستشهد الإمام عبد القاهر بالآية وجعلها من الصميم الخالص من الاستعارة ، وطَرَّزَ دُرَرَها بقوله : " واعلم أن هذا الضرب هو المنزلةُ التى تبلغ عِندها الاستعارة غايةَ شرَفِها ، ويتسعُ لها كيف شاءت المجالُ فى تفنُّنها وتصرُّفها ، وها هنا تَخْلُص لطيفةً رُوْحَانيةً ، فلا يُبْصِرُها إلا ذَوُو الأذهانِ الصافيةِ ، والعقولِ النافذة ، والطباعِ السليمة ، والنفوسِ المستعدَّة لأن تَعِىَ الحِكْمةَ ، وتعرف فَصْلَ الخطاب " .(٢)

٢- قَولُه تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ (٣).

استشهد به الخطيب فى موضعين من درس الاستعارة :

الموضع الأول : أن الاستعارة التحقيقية (التصريحية) تتناول أمرا عقليا ، أى أن يكون المستعار له (وهو المشبه) أمرا عقليا . فالمستعار له فى الآية (أى المشبه) هو ما أصاب أهل القرية من الضُّر والألم بسبب الجوع والخوف ، والمستعار منه (أى المشبه به) هو اللباس ، والجامع

---

(١) ينظر التصوير البيانى د محمد أبو موسى ص ٢٢٤ نشر مكتبة وهبة بالقاهرة ط خامسة .
(٢) أسرار البلاغة ص ٦٥ .
(٣) النحل : ١١٢ .

(أى وجه الشبه) العموم ، فالضُّر والألم من أثر الجوع والخوف يشملان أهل القرية جميعا ، واللباس يعم الجسد ويشمله ، ثم حذف المشبه واستعير له اللباس استعارة تصريحية أصلية ٠

وفى تحديد المستعار له فى الآية اختلفت مقولة السكاكى عن مقولة الزمخشرى ، وأورد الخطيب المقولتين ٠ أما الزمخشرى فيرى أن لفظ اللباس استعير لمعنى عقلى وهو ما غشى أهل القرية من الضُّر والألم الناشئان عن الجوع والخوف ، والضر والألم عقليان ٠ وأما السكاكى فيرى أن لفظ اللباس مستعار لشىء محسوس وهو الصُّفْرة وانتقاع اللون ورثاثة الهيئة بسبب الجوع ٠ فالاستعارة على رأى الزمخشرى من استعارة محسوس وهو اللباس لمعقول وهو أثر الضر والألم ، وعلى رأى السكاكى من استعارة محسوس وهو اللباس لمحسوس وهى الصفرة وانتقاع اللون٠ عرض الخطيب الرأيين ولم يرجح أحدهما ٠

قال الخطيب : (وأمَّا قَولُه تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ ، فعلى ظاهرِ قَولِ الشَّيخِ جَارِ اللهِ العلَّامَةِ استعارةٌ عقليةٌ ؛ لأنه قال : " شبَّهَ باللِّباسِ – لاشتمالِهِ على اللَّابِسِ – ما غَشِىَ الإنسانَ والتبَسَ به مِن بَعضِ الحوادِثِ " ، وعلى ظاهرِ قَولِ الشَّيخِ صاحب المفتاحِ حسيَّةٌ ؛ لأنه جَعَلَ اللِّباسَ استعارةً لما يَلْبَسُه الإنسانُ عِندَ جُوعِه وخَوْفِه من انْتِقَاعِ اللَّونِ ورَثَاثَةِ الهيئةِ) ٠[1]

---

[1] الإيضاح مع البغية ٣/ ٩٥ ٠ وينظر الكشاف للزمخشرى ٢/ ٣١؛ ط مصطفى الحلبى ١٣٩٢هـ ، والمفتاح للسكاكى ٣٢٨ ط المكتبة التوفيقية ، وعبارة الزمخشرى مبنية على التقديم والتأخير ، والأصل : شُبِّه ما غَشيَ الإنسانَ والتبَسَ به مِن بَعضِ الحوادثِ باللباس=

والموضع الثانى : أنه استشهد بالآية فى (التجريد) وهو أن يذكر مع الاستعارة ما يلائم المستعار له (أى المشبه) ، فالتعبير بالإذاقة فى قوله (فأذاقها) يناسب المشبه وهو ما أصاب القرية من الألم والضر بسبب الجوع والخوف ، فإنهم يقولون " ذاق فلان البؤس والضر " و " أذاقه العذاب " ؛ فكان ذكر الإذاقة تجريدا للاستعارة . ولو قيل " فكساها الله لباس الجوع والخوف " لكان ترشيحا ؛ لأن الكسوة تلائم المستعار منه وهو اللباس ، ولا تلائم الجوع والخوف .

وهذا التجريد يرجح أن المستعار له عقلى – وهو قول الزمخشرى – لأن الإذاقة تناسب المعنى العقلى وهو الضر والألم بسبب الجوع والخوف ، ولا تلائم الوجه الحسى وهو الصفرة وانتقاع اللون ورثاثة الهيئة ؛ لأن تلك الصورة الظاهرية لا يعبر معها بالإذاقة .

قال الخطيب فى استشهاده للتجريد : (وعليه قوله تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ ، حيث قال (أَذَاقَهَا) ، ولم يَقُلْ : (كساها) ؛

= لاشتمالِه على اللَّابِسِ . فالمشبه هو ما غَشِىَ الإنسانَ والتبَسَ به مِن بَعضِ الحــوادِثِ ، والمشبه به اللباس ، ووجه الشبه الاشتمال فى كل .وللزمخشرى فى الآيــة كــلام طويــل نفيس ، قال عنه ابن المنيِّر : " وهذا الفصل من كلامه يستحق علــى علمــاء البلاغــة أن يكتبوه بذَوْبِ التِّبْرِ لابالحِبْرِ "(الانتصاف ٢/٤٣١)

وقول الخطيب " فعلى ظاهرِ قَولِ الشَّيخِ جَارِ اللهِ العلَّامَةِ استعارةٌ عقليةٌ " جعل ذلك ظاهره لاصريحه لأنه جعل المشبه ماغشى الإنسان من بعض الحوادث ، فيجوز أن يكــون مــراده مايحصل من الجوع والخوف من الضرر فتكون عقلية . ويجوز أن يكون مراده مايحصــل من انتقاع اللون ورثاثة الهيئة فتكون حسية كماذهب إليه السكاكى (ينظر عروس الأفراح للسبكى ٥١/٤ ضمن شروح التلخيص نشر دار السرور ، وبغية الإيضاح ٩٥/٣) .

فإنَّ المرادَ بالإذاقَة إصابتُهم بما استُعيرَ له اللِّباسُ ، كأنه قال فأصابها اللهُ بلباسِ الجُوعِ والخَوف . قال الزَّمَخْشَرِىُّ : (الإذاقَةُ جرَتْ عندَهم مَجْرَى الحقيقة لشُيُوعها في البَلايا والشدائد وما يَمَسُّ الناسَ منها ، فيقولون : "ذاقَ فُلانٌ البُؤْسَ والضُرَّ" ، و " أذاقَهُ العذابَ " : شُبِّهَ ما يُدْرِكُ من أثَرِ الضُرِّ والألَمِ بما يُدْرِكُ من طَعْمِ المُرِّ والبَشِعِ) . فإنْ قيلَ التَّرْشيحُ أبْلَغُ مِن التجريد ، فهلَّا قيلَ : (فكساها اللهُ لِباسَ الجُوعِ والخَوْفِ) ؟ قُلْنا : لأن الإدراكَ بالذَّوقِ يَسْتَلْزِمُ الإدراكَ باللَّمْسِ مِن غيرِ عكْسٍ ؛ فكان في الإذاقة إشعارٌ بشدَّةِ الإصابةِ بخلافِ الكُسْوَةِ . فإنْ قيلَ : لِمَ لم يَقُلْ : (فأذاقها اللهُ طَعْمَ الجُوعِ والخَوْفِ) ؟ قُلْنا : لأن الطَّعْمَ وإنْ لاءَمَ الإذاقةَ فهو مُفَوِّتٌ لما يُفيدُه لَفْظُ اللباسِ مِن بَيانِ أنَّ الجُوعَ والخَوْفَ عَمَّ أثَرُهُما جميعَ البَدَنِ عُمُومَ المَلابسِ) (1).

أخذ المؤلف قوله : (فإنْ قيلَ التَّرْشيحُ أبْلَغُ مِن التجريد ، فهلَّا قيلَ : " فكساها اللهُ لِباسَ الجُوعِ والخَوْفِ " ؟ من قول جار الله : (ولو نُظِرَ إليه – أى إلى المستعار منه –

فيما نحن فيه لقيل : فكساهم لبـــاس الجوع والخوف) ، فصاغ المؤلف الفكرة فى صورة

سؤال فقال : " فإنْ قيلَ التَّرْشيحُ أبْلَغُ مِن التجريدِ . فهلَّا قيلَ : (فكساها اللهُ لِباسَ الجُوعِ والخَوْفِ) ؟ ، ثم أجاب عنه المؤلف بقوله : "قُلْنا: لأن الإدراكَ بالذَّوقِ ... الخ . وتلك إضافة الخطيب التى أضافها إلى ما اقتبس من جار الله .

---

(1) الإيضاح مع البغية ٣/ ١٢٥ ، ونص الزمخشرى فى الكشاف : ٢/ ٤٣١ .

وقول الخطيب (فإنْ قِيلَ : لِمَ لم يَقُلْ : " فأذاقها اللهُ طَعْمَ الجُوعِ والخَوْفِ " ؟ اقتبسه من قول الشريف الرَّضِىِّ : (ولم يقل : " طعم الجوع والخوف " ؛ لأن المراد بذلك – والله أعلم – وصف تلك الحال بالشُّمول لهم والاشتمال عليهم ، كاشتمال الملابس على الجلود ؛ لأن ما يظهر منهم من مضيض الجوع ، وأليم الخوف من سوء الأحوال ، وشحوب الألوان ، وضؤولة الأجسام ، كاللباس الشامل لهم والظاهر عليهم) ([1]) .

ومن هذا النظر فى مصادر الخطيب فى بيان التجريد فى هذه الاستعارة نرى أن الخطيب مزج ما قاله الشريف الرضى وما قاله الزمخشرى مزجا جيدا ، ليكشف عن وجه من وجوه إعجاز القرآن فى اصطفاء اللفظ الكاشف عن جوهر المعنى وخصائصه ؛ ولذا لم يقل القرآن: " فكساها الله لباس الجوع والخوف " ، ولم يقل : " فأذاقها الله طعم الجوع والخوف " . وخرج الخطيب عن حدود المفتاح الذى لم يستشهد بالآية فى درس الترشيح والتجريد ، وإنما استشهد بها على أنها من استعارة محسوس لمحسوس ([2])، كما لم يتقيد بما قاله الرازى الذى استشهد بها فى التجريد ولكن لم يزد على أن قال : (لو نظر إلى المستعار هنا لقيل : فكساها لباس الجوع) .([3])

([1]) كتاب تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى ص ١٤٧ ت د / على مقلد ط منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٨٦ م . ومضيض الجوع : حُرْقَتُه ومشقَّتُه وألمه

([2]) ينظر المفتاح ص ٣٢٨ .

([3]) نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للرازى ص١٧٦ ت د/ أحمد السقا ط المكتب الثقافى بالقاهرة ط أولى ١٩٨٩ .

ويلاحظ أن النظم الشريف استعمل لفظين كلٌّ منهما من واد ؛ لأنهما يدلان على دقائق المعنى ، فاللباس يناسبه الكسوة ، فهما من واد واحد ، ولكن النظم الشريف اصطفى منهما لفظ اللباس وترك لفظ الكسوة ، فقال تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ ولم يقل : فكساها الله لباس الجوع والخوف ؛ فآثر لفظ " لباس " لما

فيه من دلالة على عموم التأثير وشموله ، وأن الجوع والخوف شملا القرية شمول الملابس لمن يلبسها ، وترك النظم لفظ " كساها " – مع أنه ملائم للباس ، فهما من واد واحد – لأنه لايدل على شدة تأثير ما ألم بهم من الجوع والخوف ؛ إذ الكسوة غلالة ظاهرة لا تتعدى المظهر الخارجى ، والنظم الشريف يرمى إلى أن الجوع والخوف أثَّرا فى القرية أبلغ التأثير وتغلغلا فيها وجاسا خلال الديار ، فكانا هما الظِّهارة والبطانة والعَرَضَ والجوهر ، فلا ترى فى القرية إلا جوعا وخوفا متجسدين مستوليين على كل شىء ٠

كما أعرض النظم الشريف عن أن يقول : فأذاقها الله طعم الجوع والخوف ، مع أن الطعم والإذاقة من واد واحد ، فاختار النظم الشريف لفظ " أذاقها " لما فى الإذاقة من دلالة على شدة التأثير وأن الجوع والخوف أثَّرا فى القرية أشد التأثير ووجد الناسُ مرارتهما كما يذوقون طعم الشىء المر الكريه البشع ٠ وترك النظم الشريف لفظ " طعم " لأن الإذاقة تغنى عنه وتدل عليه ، وآثر لفظ " لباس " لما فيه من معنى جديد ومهم وهو الدلالة على العموم والشمول ٠

وهكذا أخذ النظم الشريف من كل عبارة أحسن مافيها وأكثره مناسبة للمعنى ، فأخذ من عبارة : " فكساها الله لباس الجوع " لفظ اللباس وترك لفظ الكسوة ، وأخذ من عبارة : " فأذاقها الله طعم الجوع والخوف " لفظ الإذاقة وترك لفظ الطعم ، فأخذ من كلٍّ اللفظَ الأبلغَ الكاشفَ عن سَمْتِ المعنى وخصائصه ولطائفه ، وبهذا وغيره كان القرآن معجزا ؛ قال أبو سليمان الخطابى : (اعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، فى أحسن نُظُومِ التأليف ، مُضَمَّناً أَصَحَّ المعانى ... واضعاً كلَّ شىء منها موضعَه الذى لايُرَى شىءٌ أولى منه ، ولا يُرَى فى صورة العقل أَمْرٌ أليق منه " .([1])

وقول الخطيب : " فإن قيل إن الترشيح أبلغ من التجريد " يعنى أنه أبلغ من حيث إنه مبنى على تناسى التشبيه ومحو صورته والتوغل فى الاستعارة ، فالأبلغية هنا من حيث مقتضى الصنعة والقسمة العقلية ، ولا يعنى هذا أن الترشيح أبلغ من التجريد دائما وفى كل مقام ، فإن التجريد أبلغ منه إذا كان فى حاق موقعه وطابق مقامه كما فى هذه الآية لأن العبرة بالوفاء بحق المعنى وإماطة اللثام عن مستودعات أسراره ودقائقه ولطائفه.

وكشف أبو الحسن الرمانى عن معنى حَسَنٍ فى هذه الاستعارة ، وهو معنى الاستمرار ، قال : (وهذا مستعار ، وحقيقته : أجاعها الله وأخافها ،

([1]) بيان إعجاز القرآن للخطابى ص ٢٧ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن للخطابى والرمانى وعبد القاهر الجرجانى ت محمد خلف الله أحمد ود / محمد زغلول سلام ط دار المعارف ط رابعة .

والاستعارة أبلغ ؛ لدلالتها على استمرار ذلك بهم كاستمرار لباس الجلد وما أشبهه.وإنما قيل : ذاقوه ؛ لأنه كما يجد الذائق مرارة الشىء فهم فى الاستمرار كتلك الشدة فى المذاقة) (١) .

وآية سورة النحل بتمامها : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾، فالقرية كانت تنعم بنعمتى الأمن والرزق الرغد ، فلما كفرت بأنعم الله تعالى قلب النعمتين عذابا وعقابا : فبدل الأمن خوفا والرزق الرغد جوعا ، وجعل ذلك شديدا قاسيا سابغا عامًا، حتى صار كاللباس الذى يشتمل على لابسه ، وجعل القرية كلها يغشاها ويعمها لباسٌ واحد ، فلم ينج أحد منها من لباس الجوع والخوف ، بل صار ذلك اللباس العجيب كأنه (الزِّىُّ الموحَّد) لأهل تلك القرية ، بل وللقرية معهم على سبيل المبالغة ؛ لأن الإذاقة واقعة على القرية نفسها ؛ ولذا لم يقل : فأذاق أهلها لباس الجوع والخوف ، بل أذاقها معهم . ولو حذف لفظ " لباس " وقيل : فأذاقها الله الجوع والخوف لضاعت معانٍ جليلة، منها : عموم الخوف والجوع للأفراد والقرية الذى يعطيه لفظ " لباس " ، ومنها : أن الجوع والخوف باديان ظاهران ظهور اللباس على لابسه . والله تعالى أعلم .

ومن لطيف النظم فى هذه الآية قيامها على أسلوبى المقابلة واللف والنشر ، حيث ذكر فى أول الآية نعمتين : (الأمن – والرزق) وهذا لَفٌّ مفَصَّلٌ ، ثم ذكر ضديهما على غير الترتيب : (الجوع) فى مقابل (الرزق)

---

(١) النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ص ٩٠ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن

و (الخوف) فى مقابل (الأمن) وقدم فى جانب الإنعام (الأمن) فقال " وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ " لشيوع القتال والحروب عند العرب ، وحفظ الله تعالى أهل مكة من ذلك ، وجعلها آمنة مطمئنة ؛ قال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ (١)، ونظير تقديم الأمن على الرزق فى آية النحل قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾٠(٢) وقدم (الجوع) على (الخوف) فى جانب العقاب فى قوله تعالى : " فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ " لأن الجوع أقرب للإذاقة من الخوف ، إذ الجوع فقدان الطعام والشراب اللذين يقع عليهما الذوق باللسان ، وإذا جاع الناس ذهب الأمن وحلَّ الخوف ٠ والله تعالى أعلم ٠ ويمكن للباحث النبيه أن يتأمل تقديم الجوع على الخوف هنا مع تقديم الخوف على الجوع فى آية البقرة ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾(٣) وتقديم النقص من " الأموال " على النقص من " الأنفس " ، مع أن الأَنْفُسَ أعزُّ وأنْفَسُ والنقص منها أعظم ابتلاء ، فالبحث عن هذا ونظائره من لطائف الذكر الحكيم هو سبيل من رام العلم وجدَّ فى الطلب ، والفهم عن الله تعالى نور يرزقه من يشاء من عباده ، والله الهادى إلى سواء السبيل٠

---

(١) العنكبوت : ٦٧ ٠

(٢) القصص : ٥٧ ٠

(٣) البقرة : ١٥٥ ٠

وذكر الألوسى أن القرية كفرت بنعمتى (الأمن والرزق) والتعبير بالجمع فى قوله (فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ) ؛ لأن هاتين النعمتين في قوة نعم كثيرة ، وفى إيثار جمع القلة إيذان بأن كفران نعم قليلة أوجب هذا العذاب فما ظنك بكفران نعم كثيرة " (١)، والقرية التى ضُرِب لها هذا المثل هى مكة المكرمة التى سكنها أهل الشرك ، أو هى قرية كفرت بأنعم الله تعالى ، ضربها الله تعالى مثلا لأهل مكة إنذارا من مثل عاقبتها (٢) .

وفى الآية ثلاث استعارات ، الأولى : تصريحية أصلية فى لفظ " لباس " : شبه ماغشى أهل تلك القرية من الصفرة وانتقاع اللون والنحول باللباس بجامع الاشتمال فى كل ، واستعير اللباس لذلك استعارة تصريحية أصلية . والثانية : مكنية فى لفظى " الجوع والخوف " : شبه الجوع والخوف بطعام مر بشع ، ثم حذف المشبه به ، ورمز له بلازم من لوازمه وهو الإذاقة . والثالثة : تخييلية فى إثبات الإذاقة للخوف والجوع (٣) .

---

(١) ينظر روح المعانى للألوسى : ١٤ / ٢٤٣ نشر دار إحياء التراث العربى بيروت مصوَّرة عن دار الطباعة المنيرية بالقاهرة .

(٢) ينظر تفسير الطبرى ١٤ /٣٨٢ ، ٣٨٣ ت د / عبد الله بن عبد المحسن التركى ط دار هجر ط أولى ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م ، والكشاف ٤٣١/٢ .

(٣) ينظر المطول ٣٧٨ نشر المكتبة الأزهرية للتراث ، وحاشية الدسوقى على مختصر المعانى للسعد ٥٠/٤ ضمن شروح التلخيص

٣- قوله تعالى : ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ (١) .

استشهد به الخطيب للاستعارة الوفاقية وهى التى يمكن فيها اجتماع المستعار له والمستعار منه فى شىء ، ففى قوله " فأحييناه " استعيرت الحياة للهداية ، حيث شُبِّهت الهداية بالحياة بجامع النفع فى كل ، ثم استعيرت الحياة لها استعارة تصريحية تبعية لأنها فى الفعل ، وهى استعارة وفاقية لأن طرفى الاستعارة وهما الهداية والحياة يجتمعان فى شىء ، فإن الحى يصح أن يوصف بالهداية ، بخلاف استعارة الموت للضلال فى قوله " مَيْتا " ، حيث شُبِّه الضلال بالموت فى عدم النفع فى كل ، ثم استعير الضلال له استعارة تصريحية أصلية لأنها فى الاسم ، وهى استعارة عنادية لأن الضلال والموت لايجتمعان ، فالآية شاهد للوفاقية والعنادية جميعا .

قال الخطيب فى تقسيم الاستعارة باعتبارِ الطرفينِ : (فهى قسمان ؛ لأن اجتماعَهما فى شىءٍ إمَّا ممكنٌ أو ممتنِعٌ ، واسمُ الأُولى وِفاقيةٌ ، والثانية عِناديةٌ . أمَّا الوِفاقيَّةُ ، فكقولِه تعالى (أَحْيَيْنَاهُ) في قوله : " أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ " فإنَّ المرادَ بأحييناه هَدَيناه ، أى : أَوَمَنْ كان ضالاً فهَدَيناه ، والهدايةُ والحياةُ لا شك فى جواز اجتماعِهما فى شىءٍ) (٢) .

ووراء الاستعارة فى الآية دلالة على أن الهداية لاتعادلها نعمة فى الوجود ، وأنها كنعمة الحياة أى الوجود من العَدَم ، فمن رزقه الله تعالى الهداية فكأنما رزقه الحياة مرتين ، أو كأنما جمع حياتين : الحياة المعروفة

---

(١) الأنعام : ١٢٢ . والآية بتمامها : " أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " .

(٢) الإيضاح مع البغية ٣/ ١٠٨ .

التى هى حياة الجسم والبدن ، والحياة الجديدة التى هى حياة الرُّوح حين أشرقت بنور الله واستقامت على هديه ، ومساق الاستعارة فى مقام الامتنان بنعم الله تعالى يشير إلى أن المهتدى عليه أن يشكر الله تعالى على نعمة الهداية كما يشكره على نعمة الإيجاد من العدم ، فلولا الهداية لكان ميتا وهو حى ٠ واستعارة المَيْتِ للضال تصور أن الضال كأنما جمع موتين موت الجسم وموت الرُّوح ، بل إن موت الرُّوح - ببعدها عن الله تعالى وعدم استقامتها واهتدائها بنوره - جلب للضال اسم الموت وصفاته وهو لايزال حيا يرتع فى الأرض بجهله وضلاله ٠

قال شيخنا أبو موسى : " الآية تذكر حالين أو مرحلتين من مراحل الإنسان ، المرحلة الأولى كان فيها ميتا ، وهو فى الثانية حى ، والواقع أنه كان حيا فى الحالين حياة بمعناها المتعارف ، ولكنه لما كان منطفىء الفطرة ، مُعَطَّلَ الإدراك ، جُعِل ميتا ، وكأن غاية الحياة إنما هى فى استقامة الفطرة ، وسلامة النظر الراشد إلى معرفة الحق والخير ، والموت هنا له مفهوم جديد ربما كان انغماس النفس فى ظلمة الحيوانية ، وبقاء الرُّوح مكفوفة الإدراك ، تخبط فى الأرض من غير غاية نبيلة تسعى إليها لتسعد بها سعادة أبدية ٠ الضلال أيضا له مفهوم جديد بهذه الاستعارة..فالاستعارة هنا جددت الكلمات وأثرتها وأفرغت فيها فكرا جديدا"([1]) ٠

([1])التصوير البيانى ٢٢١ ، ٢٢٢ بتصرف ٠

والآية من شواهد أسرار البلاغة ([1]) وكلام الخطيب مقتبس منه.وذكر فى الصناعتين أن فى لفظى النور والظلمات فى الآية استعارة ، حيث "استعمل النور مكان الهدى ؛ لأنه أبين ، والظلمة مكان الكفر ؛ لأنها أشهر"([2]).

هذا النظر فى الاستعارة يجرى فى المفردات ، أى أن الميت مستعار للضال وأحييناه مستعار لهديناه والنور مستعار للهـــدى والظلمات مستعارة للكفـــر ، وكلها استعارات أخرجت المعانى العقلية من الهدى والضلال والكفر فى صورة محسوسة جسدتها وجعلتها رأى العين ، فإننا نرى الحى والميت ، والنور والظلام ، والفرق بينها لايلتبس ، والبون بينها بعيد كل البعد ، بعد الضد عن الضد .

والذى عليه أكثر المفسرين أن الاستعارة فى الآية تمثيلية أى استعارة هيئة المشبه به للمشبه ، وليست استعارة فى المفردات ؛ إذ المفردات : (ميتا – أحييناه – نورا – الظلمات) مستعملة فى معانيها الحقيقية ، فشبه المؤمن الذى هداه الله تعالى للإيمان ، وأنقذه من الكفر ، وجعله على الدين القيم والطريق الواضح البين ، لايلتبس عليه الحق والباطل ، ولايضل ، ولاتتغوله الشكوك والوساوس والفلسفات الزائفة والآراء الضالة – بمن كان ميتا فأحياه الله تعالى ، وجَعَل له نورا يمشى به فى الناس ، ثم حذفت هيئة المشبه ، واستعيرت لها هيئة المشبه به

([1]) ينظر أسرار البلاغة ص ٧٥ ، ٣٧١ .

([2]) الصناعتين ص ٢٧٠ ت البجاوى وأبو الفضل ط المكتبة العصـــرية بيـــروت ١٤٠٦ هـــ ١٩٨٦ م

استعارة تمثيلية ، وذلك فى قوله تعالى " أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ " ، كما شُبِّهَتْ هيئةُ الكافر الذى بَقِىَ على كفره ، ولم يشرح بالإيمان صدرا ، فهو يخبط فى حياته بغير هدى ولا بصيرة – بالميت الذى بقى مقبورا ، تحيط به الظلمات المطبقة ليس بخارج منها ، فهو مقيم فيها أبدا ، لاينفك عنها ولايتفلت منها ، ثم حذفت هيئة المشبه واستعيرت لها هيئة المشبه به ، وذلك فى قوله تعالى ﴿ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ ؛ ثم شُبِّهَتْ الاستعارة التمثيلية الأولى بالثانية تشبيها قائما على نفى التساوى بين الفريقين وبُعد مابين الحالين : حال المؤمن المهتدى بنور الله تعالى ، وحال الكافر الباقى على كفره المفسد لفطرته .([1]).

وتقسيم الاستعارة إلى وفاقية وعنادية لم أجده عند السكاكى فى المفتاح – وهو الكتاب الذى يلخصه الخطيب ويوضحه – وأخذ الخطيب مصطلح " العنادية " من قول الرازى : (ثم المشتركين إما أن يكونا متعاندين أو لا يكونا كذلك . ومثل لذلك باستعارة اسم الموجود للمعدوم أو اسم المعدوم للموجود واستعارة الميت للجاهل) ([2]) ولم يذكر الرازى مصطلح " الوفاقية " ، فلعله من وضع الخطيب ؛ أخذا للشىء من ضده ، فالتعاند الذى ذكره الرازى ضده التوافق ، فأثبت الخطيب مصطلح الوفاقية ومثل له .

([1]) ينظر الكشاف ٢/ ٤٨ ، وتفسير أبى السعود ٤٣٨/٢ دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م ، وروح المعانى ١٨/٨

([2]) نهاية الإيجاز : ١٨٣ ، ١٨٤ بتصرف .

على أن هذا التقسيم له جذوره فى كتاب " أسرار البلاغة " ، وهذا يؤكد أن الخطيب وهو يلخص المفتاح كان يضع نصب عينيه كتابى عبد القاهر ونهاية الإيجاز للرازى وغيرها ، يضيف منها إضافات لم يذكرها صاحب المفتاح .

ومن جذور مصطلح الوفاقية فى " أسرار البلاغة " قول الإمام وهو يحلل " لَقِىَ فلانٌ الموتَ " ، يريدون لقى الأمر الأشد الصعب الذى هو فى كراهة النفس له كالموت فاستعار الموت للأمر الشديد الصعب ، قال الإمام: " ومعلومٌ أن كونَ الشىء شديدا صعبا مكروها صفةٌ معلومةٌ لاتُنافى الحياة ، ولايُمنَعُ وجودُها معه ، كما يُمنَعُ وجودُ الموتِ مع الحياة " (١) ، فقول الإمام إن الشىء الصعب لاينافى الحياة يعنى أنه يوافقها ، ومن هنا أُخذَ مصطلح " الوفاقية " ، كما أُخذَ مصطلح العنادية من قول الإمام أيضا : " وجُعِلَ الجاهلُ ميتاً من حيث كان للجهلِ ضدٌ يُنافى الموتَ ويُضادُّه وهو العلم " وهذا يعنى أن العلم والموت لايجتمعان وهذه هى العنادية .

كما استشهد الخطيب بهذه الآية الكريمة فى الاستعارة العنادية (حين يبنى التشبيه فيها على تَرْكِ الاعتدادِ بالصفة وإنْ كانتْ موجودةً ؛ لخُلُوِّها مما هو ثمرتُها والمقصودُ منها ، وما إذا خَلَتْ منه لم تَستَحق الشَّرَفَ ، كاستعارةِ اسمِ الميتِ للحىِّ الجاهلِ = لأنه عَدِمَ فائدةَ الحياةِ والمقصودَ بها ، أعنى العِلْمَ ؛ فيكونُ مُشاركاً للميتِ فى ذلك ، ثم الضدانِ إنْ كانا قابلَين للشدَّةِ والضَّعف ، كان استعارةُ اسمِ الأَشَدِّ للأَضْعَفِ أولى ، فكُلُّ من كان أَقَلَّ علماً وأضعفَ قُوَّةً كان أولى بأن يُستعارَ له اسمُ " الميتِ " ، ولمَّا كان

---

(١) أسرار البلاغة ص ٧٩ .

الإدراكُ أَقْدَمَ من العَقلِ في كَونِه خاصَّةً للحيوانِ ، كان الأقلُّ علماً أولى باسمِ الميتِ أو الجَمادِ من الأَقَلِّ قُوَّةً . وكذا فى جانبِ الأَشَدِّ ، فكُلُّ مَن كان أكثرَ علماً ، كان أَولى بأن يُقالَ له إنَّه " حَيٌّ " ، وكذا من كان أشرفَ علماً ؛ وعليه قَولُه تعالى : ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ ؛ فإن العِلمَ بوحدانيَّةِ اللهِ تعالى،وما أَنزَلَه على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أَشْرَفُ العُلومِ) (١).

وما ذكره الخطيب هنا مختصر كله من أسرار البلاغة ، وكان غرض الإمام منه بيان أصل من الأصول ، وهو أن الشبه يؤخذ من المعقول للمعقول ؛ لأن كلا من الوجود والعدم أمر عقلى ، وساقه الخطيب كما ترى فى حديث الوفاقية والعنادية للمح هذا المعنى فى كلام الإمام كما سبق .

ويرى شيخنا أبو موسى أن تقسيم الاستعارة إلى وفاقية وعنادية لاجدوى منه ؛ لأنه لايأتى ضمن شواهد الاستعارة التى تنتقل فيها الكلمة إلى غير جنسها ؛ فإن ذلك أعم من أن يمكن اجتماعهما أو لا يمكن ، وليس هناك داع لمتابعة الأحوال العقلية لذكر مزيد من الأقسام . ثم إن هذا التقسيم أغراهم بذكر ضرب من الاستعارة يتفرع عن العنادية ، ذلك هو الاستعارة التهكمية أو التمليحية ..وكل هذه التقسيمات من وضع العلامة ابن الخطيب الرازى فى تلخيصه لكتابى عبد القاهر ، وكانت إمامته – رحمه الله – فى غير هذا الباب .. وهذا الضرب من الاستعارة عده الزمخشرى من باب العكس فى الكلام ، وهو باب واسع ، ومنه مايكون للتهكم والسخرية ، كما فى آية : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢) ، وقوله

---

(١) الإيضاح مع البغية ٣/ ١٠٨ ، ١٠٩ بتصرف .

(٢) آل عمران : ٢١ ، والتوبة ٣٤ ، والانشقاق ٢٤ .

تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (١) ، وقد يكون للتفاؤل كقولهم : المفازة وهم يريدون الصحراء ، وهى مهلكة فى الحقيقة ، وكقولهم : السليم للديغ (٢) .

٤- قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾(٣).

استشهد به الخطيب لكون الجامع فى الاستعارة (أى وجه الشبه) داخلا فى مفهوم الطرفين ، ففى قوله " وَقَطَّعْنَاهُمْ " شُبِّه تفريق اليهود فى الأرض بالتقطيع بجامع إزالة الاتصال فى كل ، ثم استعير التقطيع للتفريق استعارة تصريحية تبعية فى الفعل " قطَّع " ، والجامع - وهو إزالة الاتصال - داخل فى مفهوم التفريق والتقطيع ؛ إلا أنه فى التقطيع أقوى ؛ لأن التقطيع يستعمل فى إزالة الاتصال بين الأشياء المتماسكة .

قال الخطيب : " وكاستعارةِ التَّقْطِيعِ لتَفْرِيقِ الجماعةِ وإبعادِ بعضِهم عن بعضٍ فى قَولِه تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ ؛ فإنَّ القَطْعَ موضوعٌ لإزالةِ الاتصالِ بينَ الأَجْسامِ التى بعضُها مُلْتَصِقٌ ببعضٍ ؛ فالجامعُ بينَهما إزالةُ الاجتماعِ التى هى داخلةٌ فى مفهومِهما ، وهى فى القَطْعِ أشَدُّ . (٤)

وكلام الخطيب مقتبس من قول الإمام عبد القاهر : " إن القطع إذا أطلق ، فهو لإزالة الاتصال من الأجسام التى تلتزق أجزاؤها ، وإذا جاء فى

---

(١) هود : ٨٧ .
(٢) التصوير البيانى ٢٨٨ بتصرف .
(٣) الأعراف : ١٦٨ .
(٤) الإيضاح مع البغية ١١١/٣ .

تفريق الجماعة وإبعاد بعضهم عن بعض ، كقوله تعالى : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِى الأَرْضِ أُمَماً ﴾ كان شِبْهَ الاستعارة ، وإن كان المعنى فى الموضعين على إزالة الاجتماع ونَفْيِه " (١) ، والإمام عبد القاهر يسميها " شبه الاستعارة "، ويسميها " الاستعارة القريبة من الحقيقة " ؛ لأنه قسم الاستعارة حسب خروجها عن الأصل وجعلها مراتب ترتقى من الضعف إلى القوة ، قال : (وإذا كان الأمر كذلك ، فالذى يستحِقُّ بحكم هذه الجملة أن يكون أوَلاً من ضروب الاستعارة ، أن يُرَى معنى الكلمة المستعارة موجوداً فى المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة ، إلا أنَّ لذلك الجنس خصائص ومراتبَ فى الفضيلة والنقص والقوّة والضعف ، فأنت تستعير لفظ الأفضل لما هو دونه) (٢) ، وفى هذا السياق تناول استعارة الطيران للإسراع والفيضان لانبساط نور الفجر ونحوهما .

قال شيخنا أبو موسى : (وهذه الاستعارة – وإن كانت " شبه استعارة " كما يقول عبد القاهر – قد أثرت المعنى بما لاتجده فى مثل قولنا: وفرقناهم فى الأرض أمما ؛ وذلك لأن التقطيع يشير إلى معنى نفسى دقيق، هو هذه الوشائج والعلائق التى تقوم بين الجماعة القائمة فى مكان واحد ، والمجتمعة فى أرض واحدة ، والتى هى أشبه باللُّحْمَة فى الثوب ، وقوله " وَقَطَّعْنَاهُمْ " يشير إلى تقطيع هذه الصلات والروابط المتلاحمة ، والتى تربط الأخ بأخيه ، والوالد بولده ، والصاحب بصاحبه ، وفى ذلك تصوير

---

(١) أسرار البلاغة ص ٦٠ .
(٢) أسرار البلاغة ص ٥٥

لآثار هذا التفريق وفعله فى نفوسهم ، وربما لانجد هذا فى كلمة " فرقناهم "([1]).

ومن روائع هذه الصورة أن التقطيع يقتضى التجزىء والتفتيت وإزالة التماسك ، وقوله " أُمَماً " جمع أمة ، والأمة تقتضى الاجتماع والاتحاد والضمَّ ، فهى فى ظاهرها ضد التقطيع ، فالاستعارة تعنى بعثرتهم فى الأرض ، بحيث يكون فى كل قطعة من الأرض قطعة منهم ، وقوله " أُمَماً " يعنى أنهم لايتفرقون آحادا وأفرادا ، بل جماعات ، بحيث تراهم فى كل بلد شرزمة أو جماعة .

٥- قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ﴾ ([2])

استشهد به الخطيب لاستعارة محسوس لمحسوس بوجه حسى ، استعير العجل الذى هو ولد البقرة لما صنعه السامرى لبنى إسرائيل على صورة العجل ، استعارة تصريحية أصلية ، شبه ماصنعه السامرى على صورة العجل - وليس عجلا حقيقيا - بالعجل الحقيقى لشبهه به فى الشكل، ثم حذف المشبه واستعير له المشبه به ، والطرفان (العجلان) والجامع (الشكل) وكله حسى .

قال الخطيب : (أما استعارةُ محسوسٍ لمحسوسٍ بوجهٍ حسىٍّ ، فكقَولِه تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ﴾ ؛ فإنَّ المُستعارَ مِنه وَلَدُ البَقَرةِ ، والمُستعارَ له الحيَوانُ الذى خَلَقَه اللهُ تعالى مِن حُلِىِّ القِبْطِ التى

([1]) التصوير البيانى : ٢١٤

([2]) سورة طه : ٨٨

سَبَكَتْها نارُ السَّامِرِىِّ عِندَ إلقائه فيها التُّرْبَةَ التى أَخَذَها مِن مَوْطِئِ حَيْــزُومِ فَرَسِ جِبْرَائيــلَ – عليه السلامُ – والجامعُ لهما الشَّكلُ،والجميعُ حِسىٌّ)([1]) ٠

وما ذكره المؤلف فى هذه الآية أخذه من الكشاف ، ألفاظه من ألفاظه، وإن لم يصرح الزمخشرى أن " العجل " استعارة ، قال جار الله إن السامرى (ألقى التُّرْبَةَ التى أخذها من مَوْطِىءِ حَيْزُومِ فرس جبريل ؛ أوحى إليه وليُّه الشيطانُ أنها إذا خالطت مواتا صار حيواناً (فَأَخْرَجَ لَهُمْ) السامرى من الحفرة عجلاً خلقه الله من الحُلىِّ التى سبكتها النار يخور كما تخور العَجَاجِيل) ([2]) ٠

ويلاحظ من صريح كلام الزمخشرى والخطيب أن الله تعالى خلق عجلا حقيقيا أى جعله لحما ودما ورُوحا ، فهو عجل حقيقى وليس على صورة العجل ، وأكد الزمخشرى ذلك بقوله : " فإن قلت : كيف أثَّرت تلك التربة فى إحياء الموات؟ قلت : أَمَا يصحَ أن يُؤْثِرَ الله سبحــانه رُوحَ القُدُسِ بهده الكــرامة الخاصــة كما آثَرَهُ بغيرها من الكرامات ، وهى أن يُباشرَ فرسُه بحافره تُرْبَةً إذا لاقت تلك التربةُ جماداً أنشأه الله – إن شاء – عند مباشرته حيواناً ، ألا ترى كيف أنشأ المسيحَ من غير أبٍ عند نفخه فى الدرع ٠٠ ومَن عَجِبَ مِن خَلْقِ العجل ، فليكن من خَلْقِ إبليسَ أعجب"([3]) ٠

([1]) الإيضاح مع البغية ١١٦/٣ ٠ والقِبْطُ : بوزن السِّبْطِ أهلُ مِصْرَ ، وهم بُنْكُهــا أى أصــلُها (مختار الصحاح : قبط) ٠ والحَيْزُوم : هو الصَّدْر ، وقيل: وسط الصدر وما يُضَمُّ عليــه الحِزامُ ٠ والجمع حَيازيم ٠ وجِبْرِيلُ وجبرينُ وجَبْرَئيلُ ، كلُّه : اسم رُوح القُدُس ، عليــه الصلاة والسلام (لسان العرب : حزم ، جبرل)

([2]) الكشاف ٥٥٠/٢ ٠

([3])الكشاف ٥٥٠/٢ ٠

وإذا كان العجل الذى خلقه الله تعالى من حُلى بنى إسرائيل فتنة لهم - عجلا حقيقيا له لحم ودم وروح ، فليس فى تسميته " عجلا " استعارة ؛ ولذا لم يصرح الزمخشرى بالاستعارة ، أما تصريح الخطيب بأنه استعارة مع تصريحه بأنه (حيوان خلقه الله تعالى) فهو مشكل ! لأنه لايكون استعارة إلا إذا كان هذا المخلوق على صورة العجل وليس عجلا ! وهل هو عجل حقيقى خلقه الله تعالى ، أو شىء صنعه السامرى من ذهب بنى إسرائيل على صورة العجل ، له تجاويف إذا دخلتها الرياح سُمِع له صوتٌ كصوت خُوارِ العجل ؟ وجهان قارَّان فى التفاسير ، والاستعارة تنهض على الوجه الثانى .

وأنكر ابن عاشور أن يكون العجل حقيقيا من لحم ودم ، ورأى أن الروايات التى تنادى بذلك من وضع القصاصين ، قال : " وكيف والقرآن يقول : (من حُليهم) ، ويقول : (له خوار) ، فلو كان لحماً ودماً لكان ذكره أدخل فى التعجيب منه "([1]) .

ويؤيد ما ذكره العلامة ابن عاشور قولُ الله – عز وجل – فى شأن فرعون ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ ([2]) ، فلو كانت النجاة حقيقية لما قال " ببدنك " ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ ([3]) ، أى سقط جنين لارُوحَ فيه ، فلو كان العجل حقيقيا لما قال " جسدا ، له خوار " ، وقد أكد القرآن هذه

([1]) التحرير والتنوير : ١٦ /٢٨٦ .
([2]) يونس : ٩٢ .
([3]) سورة ص ، آية ٣٤ .

الجسدية التى لارُوحَ فيها فى آية الأعراف : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ﴾ (١) ٠ والله تعالى أعلم ٠

وقال البقاعى : " لما كان شديد الشبه للعجول ، قيل : (عجلاً) ٠ وقدم قوله : (جسداً) لنعرف أن عجليتَه صورةٌ لا معنى - على قوله : (له خوار) لئلا يسبق إلى وهم أنه حى ، فتمر عليه لمحة على اعتقاد الباطل " (٢) ٠ وهذا سر الاستعارة : الدلالة على شدة الشبه بينه وبين العجل الحقيقى ، وقوله " له خوار " يؤكد الشبه ، ووراء هذا إحكام السامرى صناعته وتأنقه فيها حتى كأنه عجل على الحقيقة وليس على صورة العجل ، وهذا شأن الاستعارة كما تقول : رأيت أسدا تريد رجلا شجاعا ، فأخرجته بالاستعارة عن شبه الأسد ، وجعلته أسدا على الحقيقة ادعاء ومبالغة ٠

٦- قَولُه تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾(٣) ٠

استشهد به الخطيب لاستعارة محسوس لمحسوس بوجه حسى ، استعير الفعل " يموج " لحركة الناس ، والجامع الاختلاط والاضطراب والتدافع ، والطرفان حسيان والجامع حسى ، وهى استعارة تصريحية تبعية قال الخطيب : (فإنَّ المُستعارَ منه حَرَكَةُ الماءِ على الوجهِ المَخصُوصِ ،

---

(١) الأعراف : ١٤٨ ٠

(٢) نظم الدرر للبقاعى ٣٣٠/١٢ ط دار الكتاب الإسلامى مصورة عن ط دائرة المعارف العثمانية ٠

(٣) الكهف : ٩٩ ٠

والمستعارَ له حَرَكَةُ الإنْسِ والجِنِّ أو يَأْجُوْجَ ومَأْجُوْجَ ، وهما حِسِّيانِ ، والجامعَ لهما ما يُشَاهَدُ مِن شِدَّةِ الحَرَكَةِ والاضْطِرَابِ (١) .

المستعار له : اضطراب الخلق عند خروج يأجوج ومأجوج ، أو عند اقتراب النفخة الأولى - لظهور يأجوج ومأجوج وهو من أمارات القيامة - أو المشبه : حركة يأجوج ومأجوج أنفسهم واضطرابهم = إما عند بناء الرَّدْمِ وعدم قدرتهم على أن يظهروه لارتفاعه أو ينقبوه لصلابته ، فصار بعضهم يضطرب فى بعض ويأكل بعضهم بعضا :

فَالنارُ تَأكُلُ بَعضَها إن لَم تَجِد ما تَأكُلُه

= وإما عند خروج يأجوج ومأجوج قبل النفخة الأولى وكثرة إفسادهم فى الأرض حتى يأكلوا الأخضر واليابس ويشربوا ماء الأنهار ويُكثِروا فى الأرض الفساد .

والمستعار منه : حركة الموج (٢) . ونبه صاحب التحرير والتنوير إلى أن قوله تعالى عقيب هذه الاستعارة : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فجمعناهم جَمْعاً ﴾ يؤذن بتشبيه حال تموجهم بحال تموج الناس فى المحشر ، تذكيراً للسامعين بأمر الحشر وتقريباً بحصوله فى خيال المشركين ؛ فإن القادر على جمع أمة كاملة وراء هذا السد ، بفعل من يسَّره لذلك من خلقه ، هو

---

(١) الإيضاح مع البغية ١١٦/٣ .

(٢) ينظر أقوال المفسرين فى تأويل الآية وبخاصة الكشاف : ٤٩٩/٢ ، ومفاتيح الغيب: ١٧٣/١٢، والتحرير والتنوير : ٤١/١٦

الأقدر على جمع الأمم فى الحشر بقدرته ، لأنّ متعلقات القدرة فى عالم الآخرة أعجب (1) .

والآية ليست من شواهد المفتاح ولا كتابى عبد القاهر . وأخذها الخطيب عن الرازى وألفاظه من ألفاظه (2) .

والفعل " يموج " لم يرد فى الذكر الحكيم إلا فى هذا الموضع ، وهو يصور الحركة والاضطراب على سبيل الاستعارة تصويرا بارعا . لأن الموج يعلو ويسفل ، ويصعد ويهبط ، ويتداخل بعضه فى بعض . فى قوة وتلاطم وتدافع .. وكذلك الناس فى هذا اليوم . ووراء ذلك دلالة على غاية الفزع والهول وشدة الموقف ، حتى يتحرك الناس العقلاء تحرك ما لايعقل ، ويمورون موره ، ويثورون ثورته ، ويهيجون هيجانه . والفعل (يموج) يصور ذلك وأكثر منه . ولطالما استعار الشعراء حركة الموج للدلالة على الاضطراب والاختلاط وشدة الموقف ، وبخاصة فى وصف الجيش والحرب، ومن ذلك قول المتنبى يصف الجيش :

وَقَد خَفَقَت لَكَ الرَّايـــاتُ فيـــهِ   فَظَلَّ يَمُـوجُ بِالبيـضِ الحِدادِ

وقول ابن حمديس :

وجَيشٍ عَريضٍ بالشِّيـاحِ طَريقُهُ   يَمُوجُ كَسَيلٍ فاضَ مُنخَرِقَ السـدِّ

وقول ابن معتوق الموسوى :

يَهُزُّونَ فى نارِ الوَغَى كلَّ جَـدْوَلٍ   يَمُوجُ به بحرٌ من المـوتِ زاخِرُ

(1) ينظر التحرير والتنوير : ١٦/٤١ .

(2) ينظر نهاية الإيجاز ص ١٨٦ .

وقول أحمد محرم فى الحرب :

كُلٌّ يَمُـــوجُ بِهـــا وكُـــلٌّ ســـاكِنٌ فَالحَـــرْبُ فى قَلَقٍ وَفى اِطمِئنـــانِ

ولاتجد لشىء من ذلك شيئا من تلك الروعة والمهابة والجلال على نحو ما فى استعارة الموج لحركة الناس واختلاطهم واضطرابهم فى الآية الكريمة ؛ فإنها بلغت أقصى ما يبلغه البيان فى الكشف عن صعوبة الموقف والذهول والحيرة وفقدان الاتزان وذهاب عقول العقلاء وأحلامهم وذكائهم وحكمتهم .

ولو قيل : " وتركناهم يموجون " لكانت الاستعارة قائمة ، ولكن بلاغة القرآن الكريم أبت إلا أن تجعل بعض الناس يموج فى بعض ، لتصوير هذه الحركة والاضطراب والتداخل والتدافع . واستخدام " فى " التى للظرفية يقوى هذا التداخل ، فإن بعض الناس لا يموج بين بعض ، ولا أمام بعض ، ولا بمرأى من بعض ، بل (فى بعض) ؛ وكأن الناس يحشر بعضهم فى بعض حشرا ، ويتوه بعضهم فى بعض ، حتى يصير بعضهم مظروفا فى بعض . والله تعالى أعلم.

٧- قَولُه تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ (١) .

استشهد به الخطيب على أن الاستعارة فى (اشْتَعَلَ) ليست من استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسى ، وإن عدها بعض العلماء منها ؛ لأنه شبه انتشار الشيب فى الرأس باشتعال النار والوجه سرعة الانبساط مع تعذر التلافى ، ثم حذف المشبه واستعير له الاشتعال ، واشتق منه

---

(١) مريم : ٤.

الفعل " اشتعل " على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية . والطرفان حسيان لكن الجامع (وهو سرعة الانبساط مع تعذر التلافى) عقلى ؛ ولذا خرجت هذه الاستعارة عند الخطيب من استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسى . وفى الآية استعارة أخرى مكنية فى لفظ (شَيْبًا) – كما ذكر الخطيب – حيث شُبِّه الشيب بشُواظ النار فى بياضه وإنارته ثم حذف المشبه به ورمز له بشىء من لوازمه وهو الاشتعال . وذكر الخطيب أن هذه الاستعارة المكنية ليست مدار بحثه فى تقسيم الاستعارة باعتبار الطرفين والجامع إلى حسية وعقلية ؛لأن المقصود بهذا التقسيم هو الاستعارة التصريحية لا المكنية .

قال الخطيب : (وأمَّا قَوْلُه تعالى : " وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا " فليس مما نحن فيه ، وإنْ عُدَّ منه لأنَّ فيه تشبيهين : تشبيهَ الشَّيْبِ بشُواظِ النَّـــارِ فى بَيَاضِه وإنارَتِه ، وتشبيهَ انتشارِه فى الشَّعْرِ باشتعالِها فى سُرْعَةِ الانبساطِ مع تَعَذُّرِ تَلافيه ، والأوَّلُ استعارةٌ بالكنايةِ ، والجامعُ فى الثانى عقلىٌّ ، وكلامُنا فى غَيرِهما) [1] .

وخالف الخطيبُ – بجعله استعارة الفعل " اشتعل " بمعنى انتشر ليست من استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسى – الإمامين الرازىَّ والسكاكىَّ اللذَينِ جعلاها منها ، والجامع عندهما هو " الانبساط " لاغير[2]،

---

(1) الإيضاح مع البغية ٣/ ١١٧ . والشَّواظُ والشُّواظُ: اللَّهَب الذى لا دُخَانَ فيه (لسان العرب: شوظ).

(2) ينظر نهاية الإيجاز ١٨٥ والمفتاح ٣٣٦ .

وزاد الخطيب وصف الانبساط بالسرعة ، كما زاد " تعذر تلافيه " وليست فى كلامهما .

ووقع فى نفسى أن الخطيب زاد فى الجامع قوله " تعذر تلافيه " – مع أنه ليس فى كلام الرازى ولا السكاكى الذى نقل عن الرازى – زاد ذلك ليثبت أن الجامع عقلى ؛ لأن تعذر التلافى أمر عقلى ، بخلاف الانبساط فهو أمر حسى .

على أن تشبيه الشيب بشواظ النار كما حكاه الخطيب هو بنصه فى الكشاف ، وكذا تشبيه انتشار الشيب فى الشعر باشتعال النار ، مع تصرُّف بسيط جدا فى الأخير ، قال جار الله : " شَبَّهَ الشيبَ بشُواظ النار في بياضه وإنارته ، وانتشارَه فى الشعر وفُشُوَّهُ فيه وأخذَه منه كل مَأْخَذٍ ، باشتعال النار ؛ ثم أخرجه مُخْرَجَ الاستعارة ، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس ، وأخرج الشيب مميزاً ، ولم يضف الرأس : اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا ، فمن ثم فَصُحَت هذه الجملةُ وشُـــهِدَ لها بالبـــلاغة " (١) .

ولكن أىّ الاستعارتين أنسب لسياق الآية وأقرب رُحْمَى : التبعية فى الفعل " اشتعل " أم المكنية فى قوله " شيبا " ؟ إذا كانت الاستعارة فى الفعل " اشتعل " فإنها تدل على أن انتشار الشيب فى الرأس كان انتشارا غريبا عجيبا حتى كأننا لانرى شيبا يظهر وينتشر شيئا فشيئا ، بل نرى نارا تشتعل اشتعالا ، فيحرق بياض الشيب سواد الشعر ، ويطغى عليه مقتدرا فلا يُبْقِى منه باقية ، كما تشتعل النار فى الهشيم فتلتهمه التهاما ، ولا تبقى

---

(١) الكشاف : ٢/ ٥٠٢ .

ولا تذر . فالاستعارة فى الفعل تركز على هذه الصورة العجيبة : شعر أسود يلتهمه الشيب التهاما ظاهرا سافرا ، والاستعارة التبعية تقوم بذلك حق القيام ، وهى أنسب بسياق الآية الذى يصور فيه سيدنا زكريا – عليه السلام – فى دعائه الخفى ضعفه ، وأن هذا الضعف استولى على جسمه كله : ماخفى منه وما ظهر ، فعبر عن ضعف بنيته بوهن العظم فقال (رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى) ولا ترى وهنا أشد من الذى يصل إلى العظم ويستولى عليه ويستحكم ، وعبر عن ضعف الظاهر باشتعال رأسه شيبا ، والاستعارة فى الفعل " اشتعل " تصف سرعة انتشار الشيب واستحكامه وأنه ملأ الرأس ولم يبق شعرة واحدة لم يعمها الشيب ، فالوهن استولى عليه استيلاء ظاهرا سافرا ؛ فهو يتضرع إلى الله تعالى ويقدم بين يدى ضراعته ضعفه البادى الظاهر ، وضع الضعف الظاهر مع الدعاء الخفى الذى هو أبلغ الدعاء وأقواه وأرجاه قبولا تلمس حرارة الدعاء وصدقه وإخلاص هذا النبى الكريم عليه السلام فى عرض حاجته بين يدى رب العالمين .

أما إذا كانت الاستعارة مكنية فى لفظ " الشيب " فهى قائمة على تشبيه الشيب بالنار ثم حذف المشبه به وهو النار ورمز له بالاشتعال – فهذه الاستعارة وإن كانت تبين غرابة الشيب وأنه لم يعد شيبا بل خرج إلى جنس آخر هو النار التى تحرق العمر حين تحرق سواد الشعر ، فإنها ليست أمسَّ رحما بالسياق ؛ لأنها تكشف غرابة الشيب نفسه وأنه صار نارا لاشيبا ، والسياق لايركز على أن الشيب كان غريبا ، وإنما يركز على أن انتشاره واستيلاءه على الرأس كان استيلاء تاما بحيث لم يبق من

الرأس شيئا إلا وعمَّه ؛ ولهذا جرى الاستشهاد بهذه الاستعارة فى الكتب لقوة ظهور الشيب وانتشاره ، وهذا يعنى أنها استعارة تبعية لا مكنية ، والفرق دقيق فتأمله .

قال الرمانى : " أصل الاشتعال للنار ، وهو فى هذا الموضع أبلغ ، وحقيقته : كثرة شيب الرأس ، إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد تزايدا سريعا صارت فى الانتشار والإسراع كاشتعال النار ؛ وله موقع فى البلاغة عجيب؛ وذلك أنه انتشر فى الرأس انتشارا لايُتلافَى كاشتعال النار " (١). كلام الرمانى – كما ترى – صريح فى أن الاستعارة هى استعارة الاشتعال لكثرة شيب الرأس ، وقوله " انتشارا لايتلافى " هو الذى اقتبس منه الخطيب إضافة (تعذر التلافى) فى وجه الشبه ليجعل الجامع عقليا لاحسيا ؛ وبهذا يتبين أن الخطيب رجع فى هذه الآية إلى ما كتبه الرمانى والزمخشرى والرازى والسكاكى فضلا عن الإمام عبد القاهر الذى كلامه هو الأصل فيما قال الزمخشرى والرازى والسكاكى ، فإذا أخذ عنهم فعنه قد أخذ ، على حد قول أبى الطيب :

أَجِزْنِى إِذا أُنْشِدْتَ شِعْــراً فَإِنَّما بِشِعْــرِى أَتاكَ المادِحُــونَ مُرَدَّدا

وهذه الاستعارة من أكثر استعارات القرآن الكريم استشهادا بها فى كتب التراث ، ولم يذكر الإمام عبد القاهر – على كثرة استشهاده بها فى

---

(١) النكت فى إعجاز القرآن ص ٨٨ .

نحو سبعة مواضع من كتابيه – أنها من قبيل استعارة محسوس لمحسوس بوجه محسوس (١) ٠

وللآمدى كلام جيد فى هذه الاستعارة ، أقيِّدُه هنا لأنه سرى فى بعض كتب البلاغة من بعده دون أن يُنْسَبَ إليه مع أنه هو أبو عُذرته ، قال إن حسن الاستعارة فى أن : " كان الشيب يأخذ في الرأس ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتى يحيله إلى غير حاله الأولى كالنار التى تشتعل فى الجسم من الأجسام فتحيله إلى النقصان والاحتراق " (٢) ، أخذه ابن الأثير فى المثل السائر (٣) وابن سنان فى " سر الفصاحة " (٤) دون نسبته إلى الآمدى ٠

٨- قَولُه تعالى : ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾(٥) ٠

استشهد الخطيب بالآيـــة لاستعارة محسوس لمحسوس بوجه عقلى، قال : (وأَمَّا استعارةُ محسوسٍ لمحسوسٍ بوَجهٍ عَقلىٍّ فكقَولِه تعالى:﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ ؛ فإنَّ المستعارَ منه كَشْطُ الجِلْدِ وإزَالَتُهُ عن الشَّاةِ ونحوِها ، والمستعارَ له إزالةُ الضَّوءِ عن مكانِ اللَّيلِ ومُلْقَى ظِلِّه ، وهُما حِسِّيَّانِ ، والجامعَ لهما ما يُعْقَلُ مِن تَرَتُّبِ أَمْرٍ على آخَرَ) (٦) ٠

---

(١) ينظر دلائـــل الإعجـــاز ١٠٠ ، ١٠١ ، ٣٩٣ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٥٢٠ ، وأســـرار البلاغة ٢٧٤

(٢) الموازنة ٢٦٩/١ ت السيد صقر ط دار المعارف ط رابعة ٠

(٣) ينظر المثل السائر لابن الأثير ٣٨٣/١ ت محمد محيـــى الـــدين عبـــد الحميـــد ط المكتبـــة العصرية ٠

(٤) ينظر سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ص ١٠٨ ت عبد المتعال الصعيدى ط ٠ صبيح ٠

(٥) يس : ٣٧ ٠

(٦) الإيضاح مع البغية ٣/ ١١٧ ٠

وكلام الخطيب مقتبس من قول الزمخشرى : " سلخ جلد الشاة : إذا كشطه عنها وأزاله . ومنه : سلخ الحية لخِرْشَائها ، فاستعير لإزالة الضوء وكشفه عن مكانِ اللَّيلِ ومُلْقَى ظِلِّهِ " (١) . وخِرْشاءُ الحية : جلد الحية وقشرُها (٢) .

قال سعد الدين : " المستعار منه السلخ ، وهو كشط الجلد عن نحو الشاة ، والمستعار له كشف الضوء عن مكان الليل ، وهو موضع إلقاء ظله ، وهما حسيان ، والجامع : مايعقل من ترتب أمر على آخر ، أى حصوله عقيب حصوله دائما أو غالبا ، كترتب ظهور اللحم على الكشط ، وترتب ظهور الظلمة على كشف الضوء عن مكان الليل ، والترتُّبُ أمرٌ عقلى ، وبيان ذلك : أن الظلمة هى الأصل ، والنور طارٍ عليها ، يَسْتُرُها بضَوئه ، فإذا غَرَبَت الشمسُ فقد سُلِخ النهارُ من الليل ، أى كُشِطَ وأُزيل كما يُكْشَطُ عن الشىء الشىءُ الطارىءُ عليه الساترُ له ، فجُعِلَ ظهورُ الظلمة بعد ذَهَابِ ضَوءِ النهار بمنزلة ظهور المسلوخ بعد سلخ إهابه عنه، وحينئذ صح قوله تعالى ﴿ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ ؛ لأن الواقع عقيب إذهاب الضوء عن مكان الليل هو الإظلام "(٣) .

الاستعارة فى لفظ " نسلخ " شبه إزالة ضوء النهار عن جسم الليل بسلخ جلد الشاة ونحوها عن جسمها ، بجامع ترتب أمر على أمر : ترتب ظهور الظلام على ذهاب ضوء النهار ، وترتب ظهور لحم الشاة على سلخ

---

(١) الكشاف : ٣/٣٢٢ .
(٢) لسان العرب : خرش .
(٣) مختصر المعانى : ٤/ ٩٤ – ٩٦ .

جلدها ، والترتب أمر عقلى ، والاستعارة تصريحية تبعية فى الفعل "سلخ"، والطرفان حسيان والجامع عقلى .

وهذه الاستعارة من بديع إعجاز القرآن ، لو فَلَيتَ ألفاظ اللغة عن لفظ يَسُدُّ مَسَدَّ قوله " نسلخ " ما وجدت له كفؤا ولامقاربا ، فلو قيل : " وآية لهم الليل نُزيل عنه النهار أو نُذهبه أو نمحوه " ، لاختلت البلاغة ومُحِيَت صورةُ الإعجاز ؛ لأن هذه الألفاظ قاصرة لاتنهض بتصوير إحلال ظلام الليل محل نور النهار ، إذ الظلام لايكون دَفْعَةً واحدة ، بل تراه ينسحب رويدا رويدا ، ويخفت نور النهار شيئا فشيئا . حتى يعم الظلام . وهذه الألفاظ لاتصور هذا الإعجاز الإلهى الخارق فى إحلال الظلام محل النور ، ولفظ " نسلخ " يصوره بدقة بالغة ؛ لأن سلخ جلد الشاة عن الشاة لايكون دفعة واحدة ، بل جزءا جزءا وشيئا فشيئا . كما أن " نسلخ " يصور القوة القاهرة والقدرة البالغة التى تسلخ الجلد الذى هو النور عن ظلام الليل ، لينسخ الظلام ذلك النور ويحل محله ، والصورة كلها تقريب لهذا الإعجاز الذى نرى أثره ولانعرف كنهه ولاحقيقته ، فهو غيب من الغيب ، قربه الله تعالى لنا بما نزاول من سلخ الشاة ونحوها ؛ ولذا افتتحت الآية الكريمة ببيان أن ذلك آية من آيات الله العلى القدير فقال تعالى ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ ﴾ ، والتعبير فى الآية إعجاز بيانى يحكى هذا الإعجاز الكونى ويكافئه .

واستعارة السلخ لإذهاب نور النهار عن الليل من فرائد القرآن التى لم تستعمل إلا فى هذا الموضع ، وقد كثر فى الذكر الحكيم تصوير إدخال الليل فى النهار والنهار فى الليل بالفعل (يولج) كقوله تعالى ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ

فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ ﴾ ذكر خمس مرات فى القرآن الكريم(١)، كما صوره القرآن بالتكوير فى موضع واحد هو قوله سبحانه ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ (٢) ، والفعلان يولج ويكور يصوران كيفية إدخال الليل فى النهار وإدخال النهار فى الليل مع مابينهما من فروق ودقائق ، وانفرد الفعل (نسلخ) بتصوير انتزاع الليل من النهار وإخراجه من جلده ؛ وهذا التكرار والتنوع فى التصوير والتعبير يهتف بأولى الألباب إلى النظر فى هذه الآية العظمى والتفكر فيها والتأمل وإعادة النظر والبحث والاعتبار وأخذ الموعظة البالغة .

وسياق هذه الاستعارة محاط من بين يديه ومن خلفه بالاستدلال على البعث بعد الموت ، وأنه حق لايمارى فيه إلا من يمارى فى إحياء الأرض الميتة بالمطر وسلخ الليل بظلامه من نور النهار ، ثم الشمس التى تجرى لأجل مسمى ، والقمر الذى يدور فى منازله حتى يعود كالعرجون القديم .. وهكذا ، فالأرض تموت وتحيا ، والنور يتبعه الظلام ، والشمس لها نهاية وأجل مسمى ، والقمر يعود كالعرجون القديم اليابس ، فهذه المخلوقات العظيمة تهب عليها ريح الفناء ، ونراها بأعيننا وهى تولد وتموت ثم تولد وتموت ، حضور متجدد ، وغياب يلفه ويطويه ، ثم تعود كرتها الأولى : الأرض الميتة يحيها المطر فتخضر حتى تكون فيها جنات من نخيل وأعناب وتتفجر فيها العيون ، ثم تعود إلى الجدب والموت ، ثم يحيها المطر مرة ثانية ، وهكذا : حياة وموت . والشمس تولد فتملأ الدنيا نورا وحياة ثم

---

(١) آل عمران ٢٧ ، والحج ٦١ ولقمان ٢٩ وفاطر ١٣ والحديد ٦ .
(٢) الزمر ٥ .

تغيب حين يلف الكون ظلام الليل فكأنما غيابها موت ، ثم تبعث من جديد حين تشرق كل يوم ، وتموت من جديد حين تغرب كل يوم . وهكذا حتى يأتى وعد الله . والقمر كذلك يولد هلالا ثم ينمو ويكبر حتى يكون بدرا كاملا ، ثم ينقص ويخبو حتى يعود سيرته الأولى فى رحلة كل شهر هى ميلاد وموت . وهذا كله ناطق بأن الموت والفناء يعم كل شىء ، ثم يكون البعث بعد الموت كما قال سبحانه ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ .يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ . وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ (١) ، ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ . إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾(٢) وتأمل المناسبة الدقيقة فى استعارة الرقاد للموت فى قوله ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ ففيه استدلال آخر على البعث بعد الموت باليقظة بعد النوم ، وهذا مما يتكرر يوميا : نوم ويقظة ، وهو دليل حى على البعث بعد الموت ، لاينكره إلا من يمارى فى المحسوس ، ولايمارى فى المحسوس إلا ممسوس !

إن سلخ الليل من النهار مع ما قبله من إحياء الأرض الميتة بالمطر فى قوله تعالى : ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ

---

(١) يس ٢٩- ٣٢ .
(٢) يس ٥١ – ٥٣ .

يَأْكُلُونَ ﴾ (١) ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ (٢) – نسق متبع فى الجمع بين ذكر إيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل وبين إخراج الحى من الميت والميت من الحى كما فى قوله جل جلاله ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣) ٠

ولفت الآمدى إلى هذه الاستعارة بكلام دقيق سرى من بعده ، قال : " لما كان انسلاخ الشئ من الشىء هو أن يتبرأ منه ويتزيَّلَ عنه حالا فحالا كالجلد عن اللحم وما شاكلهما – جعل انفصال النهار عن الليل شيئاً فشيئاً حتى يتكامل الظلام انسلاخا " (٤)٠ أخذه ابن سنان فقال : " لأن انسلاخ الشئ عن الشئ هو أن يتبرأ منه ويزول عنه حالا فحالا ، وكذلك انفصال النهار عن الليل ، والانسلاخ أبلغ من الانفصال لما فيه من زيادة البيان"(٥)، وهذا كلام الآمدى وإن لم يصرح بذكره ٠ وقول الآمدى إن الانفصال فى السلخ يكون حالا فحالا لمح دقيق لخصوصية التعبير بالفعل " نسلخ " وفضله على : نخرج ونفصل ونمحو ونزيل ٠٠الخ ، وسبق بيان ذلك قبل أن أقف على كلام الآمدى رحمه الله تعالى ٠

---

(١) يس ٣٣

(٢) يس ٣٧)

(٣) آل عمران ٢٧ ٠

(٤) الموازنة : ٢٦٩/١ ط دار المعارف ٠

(٥) سر الفصاحة ص ١٢١ ٠

ونبه الرمانى فى نكته على هذه الاستعارة وبين فضلها على الحقيقة، فقال : " نسلخ مستعار ، وحقيقته : نخرج منه النهار ، والاستعارة أبلغ ؛ لأن السـلخ إخـراج

الشىء مما لابسه وعَسُرَ انتزاعُه منه لالتحامه به ؛ فكذلك قياس الليل " (١) ، وشدة الالتحام وعسر الانتزاع فضل ظاهر للاستعارة على ما لوقيل : نخرج أو نزيل ونحوهما ، وهذا ملمح دقيق سرى فى كتب القوم بعد الرمانى تجده فى الصناعتين والمثل السائر (٢).

واستشهد بها فى تحرير التحبير للتوشيح وهو أن يكون أول الكلام يدل على لفظ آخره ، قال : " فإنه من كان حافظاً لهذه السورة ، متفطناً إلى أن مقاطع فواصلها النون المردفة ، وسمع فى صدر هذه الآية ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ علم أن الفاصلة " مُظْلِمُونَ " ؛ فإن من انسلخ النهار عن ليله أظلم ما دامت تلك الحال " (٣).

واستشهد بها فى دلائل الإعجاز للرد على من يرى أن المزية للفظ دون ما يحمله من المعنى ، وذكر أن هذا القول يُسقِط الكنايةَ والاستعارة والتمثيل والمجاز والإيجاز ، وهى الأقطاب التى تدور البلاغة عليها ، والأعضاد التى تستند الفصاحة إليها (٤)

---

(١) النكت فى إعجاز القرآن ص ٨٩ .

(٢) ينظر الصناعتين ص ٢٧٣ والمثل السائر ٣٨٣/١ .

(٣) تحرير التحبير ص ٢٢٨ ت د حفنى شرف ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقـاهرة .

(٤) ينظر دلائل الإعجاز ص ٥٢١ .

ورفض الخطيب وجها ذكره بعض العلماء فى فقه الاستعارة فى الآية، قال الخطيب : (وقِيل : المستعارُ له ظُهورُ النَّهارِ مِن ظُلْمَةِ اللَّيلِ ، وليس بسَدِيدٍ ؛ لأنه لو كانَ ذلك لقَالَ : فإذا هُم مُبْصِرُونَ ، ونحوَه ، ولم يَقُلْ : ﴿ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ أي : دَاخِلُونَ في الظَّلَامِ) (١) .

واشتهر عند كثير من شراح التلخيص وممن قام من المحدثين على خدمة كتاب الإيضاح أن الخطيب عنى الإمام السكاكىَّ بذلك لأن السكاكى قال ذلك (٢) ، وهذا صحيح من حيث إن السكاكى قال ذلك ، ونص المفتاح : " المستعار له ظهور النهار من ظلمة الليل ، والمستعار منه ظهور المسلوخ من جلدته ، فالطرفان حسيان ، والجامع هو ما يعقل من ترتب أحدهما على الآخر " (٣) . هذا كلام السكاكى (ت ٦٢٦ هـ) ، ولكنه ليس أبا عُذْرَتِه، بل هو قول مطروق ، سبقه إليه علماء منهم – فيما وقفت عليه – ابن سنان (ت ٤٦٦ هـ) فى سر الفصاحة (٤) ، والعسكرى (ت ٣٩٥ هـ) فى الصناعتين (٥) ، والرازى (ت ٦٠٦ هـ) فى نهاية الإيجاز (٦) ، ومعاصره ابن الأثير (ت ٦٣٧ هـ) فى المثل السائر (٧) ، بل إن

---

(١) الإيضاح مع البغية ٣/ ١١٧ .

(٢) ينظر مختصر المعانى ومواهب الفتاح وحاشية الدسوقى : ٤/ ٩٦ – ١٠٠ ، وينظر شرح شيخنا الدكتور خفاجى : ٥/ ٧٧- ٧٩)

(٣) المفتاح ص ٣٣٧ .

(٤) ينظر سر الفصاحة ص ١٢١ .

(٥) ينظر الصناعتين : ص ٢٧٣ .

(٦) ينظر نهاية الإيجاز : ص ١٨٧ .

(٧) ينظر المثل السائر : ٣٨٣/١ .

الألوسى نسب هذا القول إلى الإمام عبد القاهر بجوار نسبته إلى السكاكى ، قال فى روح المعانى : " ووقع فى عبارة الشيخ عبد القاهر والإمام السكاكى أن المستعار له فى الآية ظهور النهار من ظلمة الليل ، والمستعار منه ظهور المسلوخ من جلده " (١) ، ولم أجده فى الموضع الوحيد الذى ذكرت فيه هذه الآية فى كتابى الإمام عبد القاهر (٢) ، فلعل الألوسى وقف على شىء لم يصلنا من كتابى عبد القاهر ، أو لعله سها . وبعدما اهتديت إلى تحرير أن السكاكى ليس أبا عذرة هذا القول وجدت طرفا منه عند العلامة المحقق السبكى ، قال : " عبارة السكاكى هى عبارة الإمام فخر الدين والزنجانى " (٣) .

وردُّ الخطيب على من قال إن المستعار له ظهور النهار من ظلمة الليل ، والمستعار منه ظهور المسلوخ من جلده – ردٌّ وجيه . وحجةٌ بتذييل الآية دامغة ، وثمة تأويلات خرَّجَ عليها بعضُ الشُّرَّاح قول السكاكى وأوجدوا له مخرجا ، وحملوا كلامه على واحد من التأويلات الآتية :

(أ) أن قول السكاكى : " ظهور النهار من ظلمة الليل " من باب القلب ، أى كأنه قال : " ظهور ظلمة الليل من النهار " .

(ب) أن " الظهور " فى عبارة السكاكى بمعنى : الزوال . كما فى قول سبرة ابن عمرو الفقعسى من شعراء الحماسة وعيَّرد ضمرة بن ضمرة النهشلى كثرة إبله :

---

(١) روح المعانى : ٢٣/١٠ .
(٢) ينظر دلائل الإعجاز ص ٥٢١ .
(٣) عروس الأفراح : ٤/٩٤ .

أَعَيَّرْتَنا أَلْبَانَها ولُحُومَها وذلكَ عارٌ يا ابنَ رَيْطَةَ ظَاهِرُ

قال المرزوقى : " يريد على وجه الإنكار والتقريع : لِمَ عَيَّرْتَنا ألبانَ الإبل ولحومَها ، واقتناءُ الإبل مباحٌ لا محظورٌ ، ؟ وذلك عار ظاهرٌ ، أى زائلٌ . قال أبو ذؤيب :

وعَيَّرَها الوَاشُونَ أنى أُحِبُّها وتلكَ شَكَاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها

[أى زائل عنك عارها] " .

(ج) أن السلخ قد يكون بمعنى النزع ، مثل : سلخت الإهاب عن الشاة ، وقد يكون بمعنى الإخراج ، نحو : سلخت الشاة عن الإهاب ، فذهب صاحب المفتاح إلى الثانى . وصح قوله " فإذا هم مظلمون " بالفاء ؛ لأن التراخى وعدمه مما يختلف باختلاف الأمور والعادات ، وزمان النهار وإن توسط بين إخراج النهار من الليل وبين دخول الظلام لكن لِعِظَمِ شأن دخول الظلام بعد إضاءة النهار وكونِه مما ينبغى أن لايحصل إلا فى أضعاف ذلك الزمان – عُدَّ الزمان قريبا ، وجُعِل الليلُ كأنه يفاجئهم عقب إخراج النهار من الليل بلا مهلة ؛ وعلى هذا حسن استعمال " إذا " التى للمفاجأة .

وهذه التأويلات مذكورة فى شروح التلخيص ([1]) ، وعلق عليها شيخنا الدكتور خفاجى فى شرحه بأنها تمحلات ضعيفة لتصحيح كلام السكاكى ، وقال : " ولم لا نقول : إن كلام السكاكى غير صحيح " ([2]) .

([1]) شروح التلخيص : ٤/ ٩٦ – ١٠٢ بتصرف .

([2]) شرح الدكتور خفاجى للإيضاح : ٥/ ٧٨ ، ٧٩ .

وما أيسر القول بأن السكاكى أخطأ وجانب الصحة والصواب وخالفه التوفيق ونحو ذلك ، ولكن الأمثل إذا كان لحمل قول العالم على الصواب وجهٌ أن يُلْتَمَسَ ويُحْمَلَ عليه كلامُه ويُنْفَى عنه السهوُ والخطأ ، مع اليقين بأن أحدا ليس مُبَرَّءاً منهما إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم . وإذا كان فى سَعَةِ العربية وجوهٌ من التأويل يحتملها قول القائلين بذلك – وتَذَكَّرْ أنه قولٌ عتيقٌ ، ليس السكاكى أبا عُذْرته – فلا يحكم عليه بأنه " غير صحيح"، ولايحكم على تلك الوجوه الجائزة فى اللغة بأنها " تمحلات ضعيفة " .

٩– قَولُه تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ (١).

استشهد بها الخطيب على أن الاستعارة فيها ليست من استعارة محسوس لمحسوس بوجه عقلى ، قال الخطيب : (قِيل : ومنه – أى من استعارة محسوس لمحسوس بوجه عقلى – قَولُه تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ ؛ فإنَّ المستعارَ منه المرأةُ ، والمستعارَ له الرِّيحُ ، والجامعَ المَنْعُ من ظُهورِ النَّتِيجَةِ والأَثَرِ ، فالطَّرَفَانِ حِسِّيَّانِ ، والجامعُ عَقْلِىٌّ . وفيه نَظَرٌ ؛ لأنَّ (العَقِيمَ) صِفَةٌ للمَرأةِ لا اسمٌ لها ، وكذلك جُعِلَتْ صِفَةً للرِّيحِ لا اسماً ؛ والحقُ أنَّ المستعارَ منه ما فى المرأةِ من الصفة التى تَمْنَعُ من الحَمْلِ ، والمستعارَ له ما فى الرِّيحِ من الصِّفَةِ التى تَمْنَعُ من إنشاءِ مَطَرٍ وإلْقَاحِ شَجَرٍ ، والجامعَ لهما ما ذُكِر) (٢).

---

(١) الذاريات : ٤١

(٢) الإيضاح مع البغية ٣/ ١١٨ .

والقول بأن الآية من استعارة محسوس لمحسوس بوجه عقلى كلام الرازى ، والسكاكى ([1]) ، فالاستعارة عندهما فى أن شُبِّهت الريحُ بالمرأة العقيم فى عدم ظهور النتيجة والأثر فى كل ، وطرفا الاستعارة (الريح والمرأة) حسيان ، والجامع (عدم ظهور النتيجة والأثر) وهو عقلى ، والخطيب يعترض عليهما بأن المشبه ليس مطلق الريح والمشبه به ليس مطلق المرأة ، بل المشبه هو الصفة التى فى الريح ، وهى عدم إنشاء المطر وإلقاح الشجر ، والمشبه به الصفة التى فى المرأة وهى العقم ، فالطرفان على هذا الفهم عقليان لا حسيان ، والجامع عدم ظهور النتيجة والأثر وهو عقلى ، فالاستعارة هنا فى نظر الخطيب من استعارة عقلى لعقلى والجامع عقلى .

وهذه الاستعارة من بليغ استعارات الذكر الحكيم ، وممن نبه على سر بلاغتها الرمانى ، قال فى نكته : " العقيم مستعار للريح ، وحقيقته : ريح لايأتى بها سحاب ولاغيث ، والاستعارة أبلغ ؛ لأن حال العقيم أظهر من حال الريح التى لاتأتى بمطر ؛ لأن مالايقع من أجل حال منافية أوكد مما لايقع من غير حال منافية وأظهر" ([2]) . الرمانى يركز على مافى الاستعارة من معنى الظهور ، لأن انتفاء وجود الولد من المرأة العقيم أظهر من انتفاء وجود المطر من الريح ، لأن عدم الولد من المرأة يقع لوجـــود حال منافية وهى العقم ، وهذا أظهر وأوكد من عدم وجود المطر من الريح؛ إذ لايوجد فى الريح سبب ظاهر يمنع المطر ، فالرمانى يركز على أن العقيم

([1]) ينظر نهاية الإيجاز ١٨٧ والمفتاح ٣٣٦ .

([2]) النكت ص ٩٣ .

أظهر حالا من الريح فى انتفاء تحقق الخير ، وزاد الرمانى هذا المعنى – أعنى انتفاء الخير مطلقا فى استعارة العقيم – عندما تناول الاستعارة فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ (١) ، قال : " عقيم ههنا مستعار ، وحقيقته ههنا مُبِير ، والاستعارة أبلغ ؛ لأنه قد دل على أن ذلك اليوم لاخير بعده للمعذَّبين ، فقيل : يوم عقيم ، أى لايُنتِج خيرا ، ومعنى الهلاك فيهما إلا أن أحد الهلاكين أعظم "(٢) . قال شيخنا أبو موسى : " كلمة العقيم حين تأتى وصفا للعذاب يدرك الرمانى منها إشارة إلى أنه ليس العذاب الذى تعقبه رحمة كعذاب العصاة ، فليس المراد وصف العذاب بالألم أو بأنه يهلك ويبير فحسب ، وإنما الإشارة إلى ما وراء ذلك ، وأنه لاخير بعده ألبتة ..وقد جاءت وصفا للريح فى قوله تعالى : ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾(٣) وأفادت نفس المعنى ؛ لأن عادا لم تر لهم باقية " (٤).

استعارة العقيم للريح أبلغ فى الدلالة على أن عادا لم تُبقِ منهم الريح أحدا ، كما أن المرأة العقيم لاتُبقِى بعدها نسلا ، وقد أكد معنى الفناء التام فى هذه الريح العقيم قولُه تعالى بعدها : ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَىءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا

---

(١) الحج : ٥٥ .

(٢) النكت ص ٨٩ .

(٣) الذاريات : ٤١ .

(٤) الإعجاز البلاغى د/ محمد أبو موسى : ص ١٢٤ ، ١٢٥ بتصرف نشر مكتبة وهبة ط . ثانية .

جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ (١) ، قال جار الله : " والرميم : كل ما رَمَّ أى بَلِىَ وتفتت من عَظْمٍ أو نبات أو غيرِ ذلك " (٢) .

ولم توصف الريح بالعقيم فى موضع من القرآن الكريم إلا فى هذا الموضع ، ولعل ذلك لوقوعها فى سورة الذاريات أى الرياح التى تذرو التراب وتحمل السحاب والمطر ويُجْرِى الله جل جلاله بها الفلك ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ (٣) ، فهذه كلها تكون بسبب الرياح ، ومنها ريح عقيم هى نقمة وعذاب لايبقى ولايذر كما كانت ريح عاد ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِنْ شَىءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾(٤) ، وسبحان من هذا كلامه!! و" ريح عاد " يضرب بها المثل فى الإهلاك والإفناء كما ذكر الثعالبى (٥) ولصاحب الصناعتين كلام جيد نختم به القول فى هذه الاستعارة، قال : وقوله تعالى : ﴿ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ (٦) ، وقوله عز اسمه: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ (٧) ، فالعقيم التى لا تجئ بولد ، والولد من أعظم النعم ، وأجسم الخيرات ؛ ولهذا قالت العرب : شَوهاءُ

---

(١) الذاريات : ٤٢ .

(٢) الكشاف : ٤/ ١٩

(٣) الذاريات : ١ – ٣ .

(٤) الذاريات : ٤١ ، ٤٢ .

(٥) ينظر ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبى ص٦٩ ت أبو الفضل إبراهيم ط دار نهضة مصر ١٣٨٤ هـ ١٩٦٥ م .

(٦) الحج :٥٥ .

(٧) الذاريات : ٤١ .

ولُودٌ ، خيرٌ من حسناءَ عقيم . فلما كان ذلك اليوم لم يأت بمنفعة حين جاء، ولم يبق خيراً حين مرَّ سُمِّى عقيما . ويمكن أن يقال : إنما سمى عقيما لأنه لم يبق أحداً من القوم ، كما أن العقيم لا يخلف نسلا ، وسمى الريح عقيما لأنها لم تأت بمطر يُنْتَفَعُ به ويَبْقَى له أثرٌ من نبات وغيره ، كما أنَّ العقيم من النساء لا تأتى بولد يرجى . وفضل الاستعارة على الحقيقة فى هذا أنَّ حال العقيم فى هذا أظهر قبحاً من حال الريح التى لا تأتى بمطر ؛ لأن العقيم كانت عند العرب أكرهَ وأشنعَ من ريح لا تأتى بمطر، ولأن العادة فى أكثر الرياح أن لا تأتى بمطر ، وليست العادة فى النساء أن يكون أكثرهن عقيما) (١) وأثر كلام الرمانى فيه ليس بالخفى .

١٠- قَولُه تعالى : ﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ (٢) .

استشهد به الخطيب لاستعارة معقول لمعقول بوجه عقلى ، قال : (وأمَّا استعارةُ معقولٍ لمعقولٍ ، فكقولِه تعالى : ﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ ؛ فإنَّ المستعارَ منه الرُّقَادُ ، والمستعارَ له المَوتُ ، والجامعَ لهما عَدَمُ ظُهُورِ الأَفْعالِ ، والجميعُ عقلىٌّ) (٣) .

شُبِّه الموتُ بالرقاد بجامع عدم ظهور الأفعال فى كل ، ثم حذف المشبه وهو الموت ، واستعير له المشبه به وهو الرقاد استعارة تصريحية

---

(١) الصناعتين : ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
(٢) يس : ٥٢ .
(٣) الإيضاح مع البغية ٣/ ١١٩ .

أصلية فى لفظ " مرقدنا " ، وأركان الاستعارة كلها عقلية . وكلام الخطيب من نهاية الإيجاز والمفتاح ([1]) .

وهنا بحث أثاره شراح التلخيص حاصله أن وجه الشبه وهو عدم ظهور الأفعال تَحَقُّقُهُ فى المشبه (الموت) أقوى من تَحَقُّقه فى المشبه به (النوم) ، والأصل العكس وهو أن يكون وجه الشبه فى المشبه به أقوى منه فى المشبه ، وأن الأولى أن يقال إن الجامع ليس عدم ظهور الأفعال ، بل الجامع البعث الذى هو أظهر وأشهر فى النوم عنه فى الموت ، قال سعد الدين : " وقيل : عدم ظهور الأفعال فى المستعار له أعنى الموت أقوى ، ومن شرط الجامع أن يكون المستعار منه أقوى ، فالحق – وهذا من جملة كلام المعترض – أن الجامع هو البعث الذى هو فى النوم أظهر وأقوى وأشهر لكونه مما لاشبهة فيه لأحد " ، ثم أجاب السعد وابن يعقوب عن هذا الاعتراض ورفضا أن يكون الجامع هو البعث ؛ قال السعد : " لأن البعث لا اختصاص له بالموت ؛ لأنه يقال : بعثه من نومه إذا أيقظه ، وبعث الموتى إذا أنشرهم "([2]) .

وقد اقترب شراح التلخيص من لألاء هذه الاستعارة ومعدِن الحسن فيها وطرقوه طرقا خفيفا خافتا فيما ذكروا من رأى المعترض أن الجامع هو البعث الذى هو أظهر وأشهر وأقوى فى النوم عنه فى الموت ، ثم اعترضوا عليه ؛ مع أنه عين التحقيق والتدقيق فى فقه الاستعارة فى الآية،

([1]) ينظر نهاية الإيجاز ص ١٨٨ والمفتاح ص ٣٣٧ .

([2]) مختصر المعانى وينظر مواهب الفتاح وحاشية الدسوقى على المختصر : ٤/ ١٠٤ ، ١٠٥. والمطول : ٣٧١)

وقد غاص الرمانى قديما عن هذا المَغَاصِ حتى وُفِّق إليه ، قال : " أصل الرقاد النوم ، وحقيقته مِن مَهْلَكِنا [أى مَن بعثنا مِن مَهْلَكِنا] ، والاستعارة أبلغ ؛ لأن النوم أظهر من الموت ، والاستيقاظ أظهر من الإحياء بعد الموت؛ لأن الإنسان الواحد يتكرر عليه النوم واليقظة ، وليس كذلك الموت والحياة " (١) . الرمانى يرى أن الاستعارة من إلحاق غير الأظهر بالأظهر، فالنوم واليقظة أظهر لتكررهما فى حياة الإنسان من الموت والبعث لعدم تكررهما فى حياته ، فألحقت الاستعارة ما لا يتكرر بما يتكرر تقريبا لأمر الموت والبعث . قال شيخنا أبو موسى شارحا كلام الرمانى " إن القرآن يعتمد مألوف العادة فى بيان الحقائق غير المألوفة والتجارب الغريبة.فالنوم من التجارب المعتادة ، وإذا أحلنا على هذه التجربة حقيقة خفية أظهرتها، والنوم أقل من الموت فى فقد الإدراك ، ولكن القرآن لايلتفت إلى هذا ، وإنما يلتفت إلى وضوح الإحساس بالحقيقة ، فيستعير الرقاد للموت ... الاستعارة هنا لا تقوم على إلحاق الكامل فى الصفة بالناقص فيها ، ولكنها تعتمد إلحاق الناقص فى مقدار الإحساس بالصفة بالكامل فى هذا ، وهذا هو عين الأبلغية " (٢) .

وفى استعارة الرقاد للموت دلالة على قصر المدة التى بين موتهم وبعثهم من مراقدهم أى من قبورهم ، فماهى إلا رقدة ، والرقاد مهما طال أمده قصير ، فإن حياة البرزخ قصيرة جدا بالنسبة لطول مابعدها من الحياة بعد البعث فهى حياة أبدية .

---

(١) النكت : ص ٩٣ .

(٢) الإعجاز البلاغى : ص ١٢٧ ، ١٢٨ بتصرف .

ومن لطائف التنزيل وعيون الأقاويل التى ذكرها المفسرون فى هذه الاستعارة ونظم الجملة التى وقعت فيها :

(أ) أن الاستعارة فيها إشعار باختلاط عقولهم وذلك لظنهم أنهم كانوا نياما([1]).

(ب) أنهم عَدُّوا مكانهم الذين كانوا به -مع ما كانوا فيه من عذاب البرزخ- مرقداً هنيئاً بالنسبة إلى ما انكشف لهم أنهم لا قوه من العذاب الأكبر([2])

(ج) أنهم قالوا " مرقدنا " فوحدوه ، ولم يقولوا " مراقدنا " بالجمع إشارة إلى أنهم على تكاثرهم وتباعدهم كانوا فى القيام كنفس واحدة ([3]) .

(د) أن قولهم " مَن بعثنا " استفهام عن فاعل البعث مستعمل في التعجّب والتحسّر من حصول البعث . ولما كان البعث عندهم محالاً كنّوا عن التعجب من حصوله بالتعجب من فاعله ؛ لأن الأفعال الغريبة تتوجه العقول إلى معرفة فاعلها ؛ لأنهم لما بُعثوا وأُزْجِى بهم إلى العذاب علموا أنه بعثٌ فعلَه من أراد تعذيبهم ([4]) .

١١- قَولُه تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ([5]) .

استشهد به الخطيب لاستعارة محسوس لمعقول بوجه عقلى ، قَال : (وأَمَّا استعارةُ محسوسٍ لمعقولٍ فكقَولِه تعالى: " فَاصْـدَعْ بِمَا تُؤْمَرْ "؛ فإنَّ المستعارَ مِنه صَدْعُ الزُّجاجةِ ، وهو كَسْرُها ، وهو حِسىٌّ ، والمستعارَ لـــه

([1]) ينظر تفسير أبي السعود : ٥ / ٣٠٣

([2]) ينظر نظم الدرر للبقاعى : ١٦/١٤٣

([3]) ينظر المصدر السابق .

([4]) التحرير والتنوير ٢٣ / ٣٧)

([5]) الحجر : ٩٤ .

تَبْلِيغُ الرِّسالةِ ، والجامعُ لهما التأثيرُ ، وهُما عقليان ؛ كأنَّه قِيلَ : أَبِنِ الأَمْرَ إبانةً لا تَنْمَحِى كما لا يَلْتَئِمُ صَدْعُ الزُّجاجة) (١) .

شُبِّه تبليغ الرسالة بكسر الزجاجة بجامع التأثير فى كل ، ثم حذف المشبه واستعير الصدع للتبليغ ، ثم اشتق من الصدع بمعنى التبليغ " اصدع " بمعنى " بلِّغ " استعارة تصريحية تبعية . والمستعار منه وهو كسر الزجاجة حسى ، والمستعار له التبليغ والجامع التأثير وهما عقليان . وذكر ابن يعقوب أن التأثير فى التبليغ هو أن لايعود المبيَّنُ – وهو الوحى الذى يبينه الرسول صلى الله عليه وسلم بتبليغه – إلى الخفاء ، والتأثير فى الكسر هو أن لايعود المكسور إلى الالتئام ؛ ولذلك قيل فى تفسير "اصدع": " أَبِنِ الأَمْرَ إبانةً لا تَنْمَحِى كما لا يَلْتَئِمُ صَدْعُ الزُّجاجة " كما ذكر المؤلف(٢) .

ووقع فى نفسى أن المستعار له فى الآية ليس " تبليغ الرسالة " وإنما هو الجهر بها ، وبينهما فرق ؛ فإن الجهر بالرسالة والدعوة يسلزم التبليغ، والتبليغ لايستلزمه ، والجهر بالرسالة مرحلة جاءت بعد الأمر بالتبليغ الذى ورد الأمر الإلهى به للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى نحو قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (٣) ، وقد ظلت الدعوة سرا بمكة المكرمة رَدَحاً من الزمان ، نحوا من ثلاث سنين ، حتى أُمِر الرسولُ صلى الله عليه وسلم بالجهر بها

---

(١) الإيضاح مع البغية ١١٩/٣

(٢) ينظر مواهب الفتاح : ٤/ ١٠٦) ونهاية الإيجاز ١٨٨ والمفتاح ٣٣٨ . والآية من شواهد الاستعارة فى دلائل الإعجاز ص ٣٩٧ ، ٥٢١ .

(٣) المائدة : ٦٧

بقوله تعالى ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١)، فجهر بها جهرا وصدع بها صدعا ، ملأ به حياة قريش وسمعهم وأبصارهم وسادتهم وعبيدهم ، فكانت رسالته حديث كل مجلس وسامر كل ناد ، بل كانت كذلك فى جزيرة العرب كلها . ثم وجدت ذلك لجار الله فى كشافه القديم ، قال : " ﴿ فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فاجهر به وأظهره . يقال : صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً ، كقولك : صرَّح بها ، من الصَّدِيع وهو الفجر ، والصدع فى الزجاجة : الإبانة . وقيل : (فاصدع) فافْرُقْ بين الحق والباطل بما تؤمر " (٢) ، وقرأت قول السبكى – رحمه الله تعالى – : " إن الآية لم يرد بها مطلق التبليغ ، بل التبليغ جهارا ، ومطلق التبليغ كان واقعا قبل نزول الآية . قال : والتأثير فى الزجاجة حسى ، وفى التبليغ عقلى ، فالجامع بعضه حسى وبعضه عقلى " (٣).

وذكر أبو الحسن الرمانى فى بلاغة الاستعارة أن الصدع أقوى من التبليغ وأبلغ ؛ لأن التبليغ قد يكون له أثر وقد لايكون ، بخلاف الصدع فلابد له من تأثير كصدع الزجاجة (٤). قال شيخنا أبو موسى : " وفى الاستعارة إشارة إلى أن الدعوة إلى الله ليست كدعوة الناس إلى مذاهبهم وآرائهم وأهوائهم ، حين يلجأ أهل هذه المذاهب إلى المغالطة والإثارة والتهييج والتضليل ، وإقناع الجماهير ، والسيطرة على عقولها بالحق وبالباطل . الدعوة إلى الله وإلى شرعه الحكيم يجب أن تكون واضحة

---

(١) الحجر : ٩٤

(٢) الكشاف : ٢/ ٣٩٩ .

(٣) عروس الأفراح : ٤/ ١٠٥ .

(٤) ينظر النكت : ص ٨٧

وضوح النور ، محددة غير ملتبسة ، ينصدع اللبس عنها انصداع ظلمة الليل عن جبين الفجر ... فلابد أن يكون الإعلان بكلمة الله فى كل أمر إعلانا واضحا بينا ، وإن كان فى هذا مصادمة لما تعارف عليه الناس ، ولما ألفوه فى حياتهم وسلوكهم وعاداتهم ، الأمر بالصدع هنا يعنى زلزلة هذا المألوف ، وشقه ، ومصادمته مصادمة تصدعه وتهدمه ، مادام قائما على غير منهج الله ، وهكذا فعل الرسول صلى الله عليه وسلم ...ثم إن هذه الاستعارة ترمى من وجه آخر فى وجوه هؤلاء الذين يمالئون فى كلمة الله ، وحدود حلاله وحرامه لمصانعة الجهلة والطواغيت من حكام المسلمين ، وتأييد ضلالاتهم وانحرافاتهم ، وإعطائها صبغة قرآنية ، وكذلك الذين يصانعون العقائد والمذاهب المعاصرة ، فيتساهلون فى تحديد وجهة نظر القرآن أو يلبسون فى بعض جوانبها ليدنوا هذه النظم من القرآن أو يدنوا القرآن منها ، وهذا وغيره يخالف الإبانة الكاشفة التى جسدتها كلمة " فاصدع " ، وقوله " بِمَا تُؤْمَرُ " يبعد عن هذا الأمر عنصر البشرية وذاتية محمد عليه السلام ، فالذى ينادى به ويجهر بالدعوة إليه أمر تلقاه وليس غير ذلك ، وقوله ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ حدد موقف الداعى من جبهة العناد والضلال ، وأنه الإعراض عنهم ، حتى لاتستهلك طاقة الداعى فى لجاجاتهم الغوغائية ، وفى محيطهم السلبى المعطل " (١) .

ولا أدرى إذا كان من نافلة القول أن مخارج الحروف فى الفعلين " بَلِّغْ " و " اصْدَعْ " تدل على أن البلاغ قبل الصدع ؛ لأن الباء مخرجها قبل

---

(١) الإعجاز البلاغى : ص ١٢٢، ١٢٣ ، والتصوير البيانى : ص ٢٢٣، ٢٢٤ بتصرف .

الصاد ، ثم الصدع أظهر من التبليغ وأبين وأشهر ؛ لأن الصاد من حروف الصفير ٠ ثم الصدع أقوى تأثيرا من التبليغ وأعظم أثرا ؛ وإن اشتركا فى مطلق التأثير ؛ وكفاء ذلك فى الحروف ما ختمت به الكلمتان ، ختمتا بالعين والغين وهما من حروف الحلق ؛ وهذا مناسب لإيصال الرسالة وتبليغها إلى أقصى ما يمكن من بذل الوسع والطاقة ، ثم العين والغين وإن اشتركا فى خروجهما من الحلق ، إلا أن العين من وسطه والغين من أدناه أى أقربه مما يلى الفم ، فالعين أبعد مخرجا لأن التأثر مع الصدع أعمق وأبعد غورا وأعظم أثرا ٠والله تعالى أعلم٠

ومن التناسب الظاهر وقوع هذه الاستعارة " فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ " – وما يؤمر به هو القرآن الكريم – فى سورة الحجر التى افتتحت بذكر القرآن ووصفه بأنه " مبين " أى واضح لا لبس فيه ولاغموض ، ينكشف به الحق والباطل انكشافا تاما ، كما أن الصدع إبانة تامة ينمحى معها كل مواربة وكل التباس ، أو كما قال الخطيب : " أَبِنِ الأَمْرَ إبانةً لا تَنْمَحِى كما لا يَلْتَئِمُ صَدْعُ الزُّجاجة " ، وضع أول السورة وهو قوله عز وجل : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾ (١) مع قوله جل جلاله : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) يظهر لك هذا التناسب ٠ ومن عجائب البيان القرآنى أنه على كثرة ما وصف فيه الرسول – عامة – بأنه نذير مبين حيث تكرر قوله تعالى ﴿ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أحدى عشرة مرة ، إلا أنه لم يرد فيه قوله " إِنَّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ " هكذا بتعريف الطرفين وذكر ضمير

---

(١) الحجر : ١.
(٢) الحجر : ٩٤.

الفصل إلا فى موضع واحد هو فى سياق استعارة الصدع للجهر بالرسالة ، وتأمل السياق:﴿وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ۝ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) ، فالكتاب قرآن مبين ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو النذير المبين ، فلابد أن يكون جهره بالرسالة صدعا أى شقا وكسرا ونورا ينصدع انصداع الفجر المبين يشق دياجى الظلام ويميز الحق من الباطل فى بيان كاشف واضح لا لبس فيه ، والله تعالى أعلم .

وتردد فى الكتب أن قوله تعالى ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ من روائع إيجاز القِصَر ، وهو تكثير المعنى وتقليل الألفاظ ، فهذه الجملة القرآنية ثلاث كلمات تشتمل على أمر الرسالة وشرائعها وأحكامها على الاستقصاء ، لما في قوله فاصدع من الدلالة على التأثير ، كتأثير الصدع . وذُكر أن أعرابيا سمع رجلا يتلوها فسجد ، وقال : سجدت لفصاحتها (٢) .

١٢- قَولُه تعالى :﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾(٣) .

استشهد به الخطيب لاستعارة محسوس لمعقول بوجه عقلى ، قال : (جُعِلَت الذِّلَّةُ مُحِيطةً بهم مُشتمِلةً عليهم = فهُم فيها كما يكونُ فى القُبَّةِ مَنْ ضُرِبَتْ علَيه = أو مُلْصَقةً بهم حتى لَزِمَتْهُمْ ضَرْبَةَ لازِبٍ = كما يُضْرَبُ الطِّينُ على الحائطِ فيَلْزَمُه = فالمستعارُ منه : إمَّا ضَرْبُ القُبَّةِ على

---

(١) الحجر : ٨٩ – ٩٤ .

(٢) ينظر الصناعتين ١٧٦ والإعجاز والإيجاز للثعالبى ص ١٢ ط دار لبنان ودار صعب .

(٣) آل عمران : ١١٢ .

الشخصِ، وإمَّا ضَرْبُ الطِّينِ على الحائطِ ؛ وكِلاهما حِسىٌّ ، والمستعارُ له : حالُهم مع الذِّلَّةِ ، والجامعُ : الإحاطةُ أو اللُّزومُ ، وهما عقليان) (١).

الاستعارة فى لفظ " ضُرِبَ " شُبِّهت إحاطةُ الذلة بهم وثبوتها عليهم بضرب القبة أى إحاطتها بمن بداخلها ، أو بضرب الطين على الحائط أى لزومه له وثبوته ، ثم حذف المشبه وهو الإحاطة أو اللزوم ، واستعير له المشبه به وهو الضرب ، ثم اشتق منه الفعل المبنى للمجهول " ضُرِبَ " على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

وذكر صاحب المطول احتمال أن تكون الاستعارة مكنية فى لفظ " الذِّلَّةُ " ، قال : " ويحتمل أن يُشبَّه الذلةُ بالقبة أو الطين ، وتكون القرينة إسناد الضرب المُعَدَّى بـ " على " إليها ، فيكون استعارة بالكناية " (٢) ، وقال أبو السعود : " منْ ضَرْب الطين على الحائط بطريق الاستعارة بالكناية " (٣) .

وبين جعل الاستعارة فى الآية تبعية وجعلها مكنية فرق دقيق ؛ لأن المكنية ترمى إلى تصوير الذلة بصورة غريبة : صورة القبة المضروبة أو صورة الطين الملصوق بالحائط لايزول عنه ؛ وهذا يعنى أن الذلة خرجت عن معناها المألوف وتجسدت فى صورة قبة ونحوها . فهى نوع من الذلة خاص وغريب . هذا مذاق الاستعارة المكنية . أما التبعية فلا تجعل الغرابة فى الذلة ولاتخرجها عن مفهومها المتعارف ، فهى الذلة المعروفة

---

(١) الإيضاح مع البغية ١١٩/٣ .
(٢) المطول ص ٣٧١ .
(٣) تفسير أبى السعود : ١ / ١٣٧ .

التى هى أشد ماينزل بالناس وأعظمه بلاء لمن كان له حس وشعور بالعزة والكرامة ، وهذا شىء تركز عليه الاستعارة التبعية : أن تبقى الذلة هى الذلة بعارها وشناعتها وفظاعتها عند من كان له قلب أو مسكة من عقل أو شعور ، ثم تأتى التبعية لتصور الغرابة فى شىء آخر أنسب للسياق وأمس به رحما ، وهو طريقة حصول هذه الذلة وثبوتها ، فتبرع أيما براعة حين تجسد هذا المعنى العقلى المجرد فى صورة القبة المضروبة على اليهود ، فهى تحيط بهم إحاطة تامة ، بحيث لاترى يهوديا واحدا يخرج عن هذه القبة أو ينزع نفسه عن هذا العار والتبلد ، ولو قلت : ليس فى اليهود من له عزة وأنفة وكرامة ، لقلت الصدق والصواب ؛ لأن القرآن الكريم – وهو كلام رب العالمين خالق البشر واليهود والكون كله – نطق بما هو أشد من ذلك ، القرآن جعل الذلة والمسكنة مهيمنة على اليهود هيمنة تامة ، ومحيطة بهم إحاطة تامة ، وضع بداخل هذه الإحاطة كل ما تتصور من ذلة ومسكنة فى القول والفعل والسلوك ، أفرادا وجماعات ، هم كذلك ، وإن تزيوا بزى الأعزة الشرفاء الأقوياء فقد تزيوا بزى غريب عليهم ، ماهم أهل له ، ولا هو أهل لهم ، وإن ساسوا العالم وحركوا قوى الشر فيه ، فهى سياسة ذلة ومسكنة نبعت من الشعور بهما وقامت عليهما هم أذلاء وإن قادوا عالمنا المعاصر وحركوا سياسته وثقافته واقتصاده بأصابع خبيثة لأغراض خبيثة ؛ فلا يغير ذلك كله حرفا مما قال ربنا ، هم كإبليس ، (ولن يأتى على الناس يوم يُذْكَرُ فيه إبليس فيقال : رضى الله عنه) كما كان يقول أديبنا الرافعى طيب الله تعالى ثراه (١) .

---

(١) ينظر مقدمة كتاب تحت راية القرآن للأستاذ مصطفى صادق الرافعى .

وتناول الرمانى هذه الاستعارة بتذوقه العالى الرفيع فقال فى نُكَتــه : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ﴾ : حقيقته : حصلت عليهم الذلة . والاستعارة أبلغ ؛ لما فيه من الدلالة على تثبيت ما حصل عليهم من الذلة كما يثبت الشــىء بالضرب ؛ لأن التمكين به محسوس ، والضرب – مع ذلك – ينبــىء عــن الإذلال والنقص ، وفى ذلك شدة الزجر لهم والتنفير من حالهم " (١) .

وأحسن أبو الحسن الرمانى – أحسن الله تعالى إليه – وذكر شــيخنا أبو موسى أن منهج أبى الحسن " ليس كمنهج المتأخرين الــذين يهتمــون ببيان المستعار له والمستعار منه والجامع بينهما والمبالغــة فــى وصــف المستعار له بالجامع ، وقلَّ أن يهتموا بشىء فى الكلمــة المســتعارة وراء الجامع ، وبهذا تحتبس بمــنهجهم هــذه الإشــارات الحيــة فــى الكلمــة المستعارة"(٢) .

الرمانى ركز فى تحليله الماتع على معنيين ثريين جدا ، أولهما : أن الاستعارة أبلغ من الحقيقة لأن الاستعارة مثلت حصول الذلة والمسكنة على اليهود فى صورة محسوسة ، صورة القبة المضروبة التى تحــيط بهــم ، فأخرجت هذا المعنى المعقول فى صورة تراها العيون ، وللرؤية بالعين أثر بالغ فى تمكين المعنى فى النفس ؛ ولذا قالوا : ليس الخبر كالمعاينة ، وما راء كمن سمعا ... الخ . وهذا المعنى هو رأس الأمر فى هذه الاستعارة وثانيهما : ما لمحه الرمانى فى لفظ الضرب من معنــى الإذلال والــنقص ؛

---

(١) النُّكَت للرمانى ص ٩٠ ، ٩١ . وأخذه أبو هلال فى الصــناعتين ص ٢٧٤ ولــم ينسـبه للرمانى .

(٢) الإعجاز البلاغى : ص ١٢٦

لأنه لايرضى بضرب هذه القبة القبيحة عليه إلا الذليل صاغر النفس العاجز المهين • وحاول ناشر رسالة الرمانى أن يعكر على هذا المعنى ويَتَــوَرَّك عليه ، فقال : " هذا التعليل محل النظر ؛ فمثل هذا الأسلوب تستعمله العرب أحيانا حيث لايلحظ الإذلال ولا النقص ، كقول الشاعر[زياد الأعجم]:

إنَّ السَّماحَةَ وَالمُروءَةَ وَالنَّدى فى قُبَّةٍ ضُرِبَت عَلى ابنِ الحَشرَجِ

ورد شيخنا أبو موسى على هذا بقوله : " لاقيمة لمــا قالــه معلــق الرسالة معترضا على استخراج هذا المعنى من الكلمة ؛ لأن معنــى الإذلال والامتهان والنقص ناشب بها من استعمالها فى مثل قولنا : ضــرب فــلان فلانا ، أو ضربته بالعصا ، وإن كان الضرب هنا ضرب الخيمــة ، ولكــن المستكن فيها يثيره سياق دون سياق ، فلا تراه يلوح فى البيت المــذكور ؛ لأن الإذلال المختبىء فى كلمة ضرب يظل غير مثار فى ســياق الســماحة والمروءة والندى ، ولكنه يلوح فى سياق الذلــة والمســكنة وغضــب الله تعالى)([1]) .

ونص الخطيب فى تحليل هذه الاستعارة يفتح بابا مــن النظــر فــى منهجه ومنهج السكاكى الذى يلخص مفتاحه ويوضــحه ؛ ذاك أن الــرازى وهو الذى قنن كتابى عبد القاهر ووضعهما فى قواعد وتقســيمات وحــدود خرج بالاستشهاد بهذه الاستعارة عن كتابى عبد القاهر ؛ لأن هذه الاستعارة ليست من شواهد كتابى الإمام ، وهذا يحسب للرازى وإن أورد الاســتعارة صامتة لم يعلق عليها بكلمة واحدة ، بل اكتفى بذكر الآيــة فــى شــواهد

([1]) الإعجاز البلاغى : ص ١٢٧ بتصرف .

استعارة المحسوس للمعقول ([1])، ثم جاء السكاكى فحذا حذو الرازى وأخذ الاستعارة عنه ، وقال معلقا : " المستعار منه ضرب الخيمة وما شاكلها ، وأنه أمر حسى ، والمستعار له التثبيت ، وأنه أمر عقلى " ([2]) ، ثم جاء الخطيب فحذا حذوهما ، ولكنه أضاف إلى تعليق السكاكى السابق كلام الزمخشرى وقدمه على تعليق السكاكى ، قال الزمخشرى : " جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم ، فهم فيها كما يكون في القبة من ضربت عليه . أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب ، كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه " ([3]) ، ثم ذكر الخطيب كلام السكاكى مع زيادات طغت عليه من بقايا الكشاف وإن لم ينسب إلى الزمخشرى والسكاكى كلامهما ، والغرض من هذا بيان مصادر الخطيب ومنازع كلامه من كتب العلماء ، والاستدلال على أن الخطيب لم يكن يقتصر على نص المفتاح بل يزيد عليه، ويرجع إلى المنابع الأصيلة فيغترف منها ويقتبس كما اقتبس هنا من الكشاف وقدمه بين يدى كلام المفتاح الذى يلخصه . وهذا يدل فى منهج الخطيب على أنه كان حريصا على إيضاح الفكرة وتعميقها ، وأنه وهو يلخص المفتاح كان يراجع كتب البلاغة عامة ويغمس يده فيها ويعب منها وينهل ، صرَّحَ بذلك أو لم يصرح .

وضرب الذلة والمسكنة لم يذكر فى القرآن كله إلا فى موضعين متشابهين ، وهما فى اليهود – لعنهم الله تعالى – وكأن هذه الاستعارة بهذا

([1]) ينظر نهاية الإيجاز ١٨٨

([2]) المفتاح : ٣٣٨ .

([3]) الكشاف : ٢٨٥/١ .

الأسلوب عقاب خاص بهم مقصور عليهم من بين الناس لفظاعة جـرمهم وإجرامهم ، ولذا تكرر فى الآيتين التركيز على علة استحقاقهم لهذه الذلـة والمسكنة بل لما هو أعظم من ضرب الذلة والمسكنة ، وهـو غضـب ذى القوة والجبروت جل جلاله ، وعلة ذلك الكفر وقتل الأنبياء ، فقال تعالى فى آية البقرة : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِـكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَـوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾(١) ، وفى آية آل عمران : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَـا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّـهِ وَضُـرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْـرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٢) .

١٣- قَولُه تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ ﴾ (٣) .

استشهد به الخطيب لاستعارة معقول لمحسوس بوجه عقلى ، قـال : (فإنَّ المستعارَ له كَثْرَةُ الماءِ ، وهو حسـيٌّ ، والمسـتعارَ منـه التكَبُّـرُ ، والجامعَ الاسْتِعْلاءُ المُفْرِطُ ، وهُما عقليّان (٤) .

الاستعارة فى الفعل " طغى " : شُبِّه علو الماء وكثرتُه عند الطوفـان بالطغيان وهو التكبر ، بجامع الاستعلاء المفرط فى كل ، ثـم حُـذِف عُلُـوُّ الماء واستُعير له الطغيان ، ثم اشتُق من الطغيان الفعل " طغى " بمعنى علا

---

(١) البقرة : ٦١ .
(٢) آل عمران : ١١٢ .
(٣) الحاقة : ١١
(٤) الإيضاح مع البغية ٣/١١٩ .

الماء وكثر استعارة تصريحية تبعية ،وكثرة الماء حسى ، والتكبر والاستعلاء المفرط عقليان .

ولأبى الحسن الرمانى كلمة موجزة ودقيقة فى بلاغة هذه الاستعارة ، قال : " حقيقته : علا ، والاستعارة أبلغ ؛ لأن طغى علا قاهرا ، وهو مبالغة فى عظم الحال"([1]) .

الطغيان والعلو مشتركان فى الدلالة على الاستعلاء ومجاوزة الحد ، إلا أن الطغيان فيه دلالتان ثريتان فى هذه الاستعارة ، الأولى : الإفراط فى الاستعلاء ، فالطغيان فى ذلك أكثر وأعظم من العلو . والثانى : معنى القهر والغلبة ، فالطاغية المتكبر يقهر من دونه تيها وغرورا ونفاجة وصلفا ، وهذا مناسب جدا لتصوير الماء عند الطوفان ، فإنه طغى على كل شىء : طغى على كل الصفات المعروفة لكثرة الماء وعلوه وفيضانه ، فأتى مقتدرا قاهرا لا نظير له يعلو على كل شىء ، وطغى على الخلائق أجمعين فلم ينج منه أحد إلا من رحم الله تعالى فعصمه وحفظه بقدرته فى الجارية التى صنعها نوح عليه السلام . علو الماء شىء حسى يدرك بالبصر ، والطغيان الذى هو التكبر معنى مجرد يدرك بالعقل ، والأصل أن يشبه العقلى بالحسى لما فى الحس من قوة وتأثير ، ولكن الآية عكست الصورة فاستعارت الطغيان وهو أمر عقلى لعلو الماء وكثرته وهو حسى ؛ للمعنيين السابقين فى كلام الرمانى ، وأضيف إليهما أن الطغيان شىء بغيض تنفر منه النفوس ، وتأباه الفطر السليمة ؛ لأنه علو بغير الحق ، واستكبار وغرور ، فاستعمال الطغيان لعلو الماء أخذ شوبا من هذا الحس ، فهو علو

([1]) النكت : ٨٧ .

مهلك مبير . ثم اقرن هذا الاستكبار والطغيان فى الماء باستكبار قوم نوح على نحو ما حكى الله تعالى على لسان نوح قوله :﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ (١) ، فكان طغيان الماء واستكباره تحطيما لطغيانهم واستكبارهم .

وسرت كلمة أبى الحسن الرمانى من بعده ، لدقتها ونفاذها وإيجازها، تجدها فى (الصناعتين وسر الفصاحة (٢) .

والاستعارة تقرب الصورة تقريبا لاتحديدا ، قال الطاهر : "والطغيان : مستعار لشدته الخارقة للعادة تشبيهاً لها بطغيان الطاغى على الناس تشبيه تقريب فإن الطوفان أقوى شدة من طغيان الطاغى " (٣) .

ولم يوصف الماء فى القرآن الكريم بالطغيان إلا فى هذا الموضع الفريد ؛ وفى هذا مناسبة لطيفة ؛ لأن الطوفان حدثٌ فريد لم يتكرر فناسبه أن يكون طغيان الماء فى القرآن وصفا فريدا لم يتكرر . وقد ركزت سورة الحافة على إهلاك الأمم الكافرة المكذبة المعاندة إهلاكا فيه صفة القوة الزائدة والشدة العاتية ، وراجع قوله تعالى فى صدرها : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ . وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ (٤) ، ثم قوله:﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ . فَعَصَوْا رَسُولَ

---

(١) نوح : ٧ .
(٢) ينظر الصناعتين ص ٢٧١ وسر الفصاحة ص ١٢١ ، ١٢٢ .
(٣) التحرير والتنوير ١٥ /٢٨١
(٤) الحاقة : ٥ ، ٦ .

رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً . إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِى الْجَارِيَـةِ ﴾ (١)، لاحظ تسمية الصيحة أو الرجفة التى أهلكت بهـا ثمـود (بِالطَّاغِيَـةِ) أى المجاوزة للحد ، ووصف ريح عاد بأنها (عَاتِيَة) أى شـديدة ، ووصـف الأخذة التى أخذ الله تعالى بها فرعون ومن قبله والمؤتفكات بأنهـا (أَخْـذَة رَابِيَة) أى زائدة فى الشدة ، وهذه الشدة الزائدة فى وصف هلاك هـؤلاء الهالكين يناسبها وصف الماء بالطغيان ، فهو بها أمس رحما ، وانظر كيف تمهد كلمة (رَابِيَة) للطغيان فى قوله (طَغَا الْمَاءُ) ، ورد طغيان الماء إلـى (الطَّاغِيَةِ) التى أهلكت بها ثمود ، تجد ذلك كله من واد واحـد ، ونسـيج واحد ، وسبحان من هذا كلامه !

ومن دقيق أسرار الرسم العثمانى الذى كتب به المصـحف اخـتلاف رسم الألف فى ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (٢) و :﴿ اذْهَبا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾(٣) عن قوله تعالى ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَـاءُ ﴾ (٤) ، فرسـمت مـع فرعون بالياء ومع الماء بالألف ؛ لأن طغيان فرعـون كـان إذلالا لقومـه وإخضاعا لهم إلى الأرض ، أما طغيان الماء فهو علو وارتفاع إلى أعلى ، وهذا الموضع وما شاكله يدل على أن الصحابة الذين دونوا القـرآن فـى مصحف واحد كانوا مُلْهَمِين " (٥) .

---

(١) الحاقة : ٩ - ١١ .

(٢) طه ٢٤ ، والنازعات ١٧ .

(٣) طه ٤٣ .

(٤) الحاقة : ١١ .

(٥) عن هامش نشرة كتاب المفتاح : ص ٣٣٨ ذكره حمدى محمد قابيل ، ناشر الكتاب – على ضعف نشرته – عن د . فتوح عبد المقصود الشورى .

١٤- قَولُه تعالى : ﴿ فَبَشِّـرْهُمْ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (١) ٠

استشهد الخطيب بهذه الآية فى ثلاثة مواضع من درس الاستعارة :

الموضع الأول : أن يستعمل الفعل فى ضد معناه أو نقيضه بتنزيل التضاد أو التناقض منزلة التناسب بوساطة التهكم ، وهذا الضرب من الاستعارة عند الخطيب من قبيل الاستعارة العنادية ومندرج فيها ٠ قال الخطيب : (ومنها – أى ومن الاستعارة العنادية – ما استُعمِلَ في ضِدِّ معناه أو نَقيضِه : بتنزيلِ التضادِ أو التناقُضِ منزلةَ التناسُبِ بوساطةِ تَهَكُّمٍ أو تَمْلِيحٍ ، كقوله تعالى: " فَبَشِّـرْهُمْ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ " ، ويُخَصُّ هذا النَّوعُ باسمِ التَّهَكُّمِيَّةِ أو التَّمْلِيحِيَّةِ) (٢) ٠ فمعنى " بشرهم " : أنذرهم ، استعيرت البشارة – التى هى الإخبار بما يظهر سرور المخبَرِ به – للإنذار الذى هو ضدها بإدخاله فى جنسها على سبيل التهكم ؛ لأن المراد بالبشارة هنا الإخبار بحصول العذاب ، وهو موجب لحزن المخبَرين ، وسميت تهكَمية لأنَ تشبيه الضدَ بضدَه لا يروج فى عقل أحد إلاَ على معنى التهكّم(٣) ٠

والموضع الثانى : أن الاستعارة التبعية فى الفعل – وإن جاءت على سبيل التهكم – تجرى فى المصدر قبل إجرائها فى الفعل نفسه ، لأن الاستعارة تعتمد على التشبيه ، والتشبيه فى الأفعال والصفات المشتقة منها

---

(١) آل عمران : ٢١ ، والتوبة ٣٤ ، والانشقاق : ٢٤ ٠

(٢) الإيضاح مع البغية ٣/ ١٠٩ ، ١١٠ بتصرف ٠ وكلام الخطيب عن التهكمية فى المفتاح ٣٢٤ ، ٣٢٥ ٠

(٣) ينظر المطول ٣٦٥

لمعانى مصادرها (١) . فالفعل (بشرهم) استعير للفعل (أنذرهم) ويكون ذلك بعد إجراء التشبيه والاستعارة فى المصدر وهو التبشير ، حيث شبه التبشير بالإنذار بجامع الإخبار فى كل أو بتنزيل التضاد منزلة التناسب ، ثم حذف المشبه وادعى أن التبشير نوع من الإنذار وضرب منه وداخل فى جنسه على سبيل المبالغة والادعاء ، ثم استعير التبشير للإنذار ، ثم اشتق من التبشير بهذا المعنى الجديد الفعل (بشِّرهم) بمعنى أنذِرْهم على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية التهكمية .

والموضع الثالث : أن المجرور يكون قرينة للاستعارة تمنع من إرادة المعنى الحقيقى للفظ ، فقوله " بعذاب " قرينة تدل على أن التبشير فى الآية غير مستعمل فى معناه الحقيقى ؛ لأن الإخبار بالعذاب لا يكون بُشرى(٢) .

تلك هى المواضع الثلاثة التى استشهد فيها الخطيب بالآية الكريمة فى درس الاستعارة . ووراء هذه الاستعارة معان لطيفة :

منها : الدلالة على أن هذا العذاب الذى يكونون فيه لايوصف هوله وفظاعته ، بحيث يكون إخبارهم بـ (العذاب الأليم) بشرى تساق إليهم ، وتنزل منهم منزل الخبر السارّ .

ومنها : الدلالة على تبلد شعورهم ، وأنهم وصلوا إلى حال من بلادة الحس وعدم التمييز بين الأشياء بحيث يستوى عندهم التبشير والإنذار ، كما استوى عندهم الخير والشر والحق والباطل .

---

(١) ينظر الإيضاح مع البغية ٣/ ١٢١ .
(٢) ينظر الإيضاح مع البغية ٣/ ١٢٤ . والمفتاح ٣٣٢ .

ومنها : مفاجأة السامع بغير مايرتقب ؛ لأن قوله (فبشرهم) يحفزهم إلى انتظار البشرى وترقبها ، والبشرى من شأنها أن ترتفع بنفس السامع وتجعله يستشرف ماوراءها بصدر منشرح ، وسرور بخير مرتقب ، فإذا قال (بعذاب أليم) انقلبت البشرى وارتدت نفوسهم على أعقابها بخيبة وحسرة بعد شوق وأمل ، وفى هذا مزيد من الألم النفسى لاتجده لو قيل : " فأنذرهم بعذاب أليم " ، فاستعمال الفعل (بشرهم) يطوى وراءه هذا الألم النفسى فوق مايحمله (العذاب الأليم) من الألم النفسى والحسى ، ووصف العذاب بأنه (أليم) أى مبالغ فى الألم دون وصفه بأنه " عظيم " أو "شديد" يؤكد ما دلت عليه الاستعارة من ألم نفسى .

ومنها : أن استعمال التبشير فى موضع الإنذار فيه غرابة تثير الانتباه وتستوقف السامع ؛ لأن العذاب الأليم لايكون بشرى ، وسياقات هذه الاستعارة فى الذكر الحكيم تقوى معنى الغرابة وإثارة الانتباه ؛ لورودها فى سياقات لامجال فيها للتبشير : أيقال لمن يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس إن لهم بُشرى ؟ أتراهم أهلا للبشرى ؟ وإذا كانوا أهلا لها فمن أهل الإنذار إذن ؟ أيقال للذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله إن لهم بشرى ؟ أيقال للذين كفروا وجمعوا بين الكفر والتكذيب إن لهم بشرى ؟ اقرأ قول العزيز الحكيم فى المواضع الثلاثة التى وردت فيها هذه الاستعارة فى الذكر الحكيم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (١) ، ﴿ وَالَّذِينَ

---

(١) آل عمران : ٢١ .

يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِـى سَـبِيلِ اللَّـهِ فَبَشِّـرْهُمْ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(١)، ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ۝ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝ فَبَشِّـرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٢) . استعارة التبشير هنا تستوقف وتثير وتحرك وتمحو عن القارىء والسامع ما يمكن أن يعتريه من غفلة وعدم انتباه ، فتقول لـه : انتبه ، إن ما يأتيك من خبر هؤلاء وعقابهم شىء مهم لاتمرنَّ عليه مرورا سريعا دون تفكر ولاتدبر ؛ بل : قف ، واعقل ، وتدبر ؛ إنـه جـنس مـن التبشير جديد لا إلف لك به ، تبشير بالعذاب الأليم ۝

١٥- قَولُه تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾(٣) ۝

استشهد به الخطيب للاستعارة التبعية التهكمية فـى المشـتق ، لأن التبعية تكون فى الفعل والصفات المشتقة منه ومثَّل لهما بقولـه " نطقـت الحال بكذا ، والحال ناطقة بكذا " استعير النطق فيهما للدلالة ، ثـم اشـتق منه الفعل " نطقت " واسم الفاعل " ناطقة " ۝ ثم ذكر الخطيب أن التبعيـة تأتى على سبيل التهكم فى الفعل وفى المشتق ، واستشهد للتبعية التهكمية فى الفعل بآية ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٤) ، وهنا يستشهد للتبعية التهكمية فى المشتق بآية (إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) ، قال الخطيب فى حديثه عـن

---

(١) التوبة : ٣٤ ۝

(٢) الانشقاق : ٢٢- ٢٤ ۝

(٣)هود : ٨٧ والآية بتمامها : " قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُـدُ آبَاؤُنَـا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِى أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ "

(٤) آل عمران ٢١ ، والتوبة ٣٤ ، والانشقاق ٢٤ ۝

الاستعارة التبعية : (وعليه فى التهكمية قوله تعالى:﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ بدل فأَنْذِرْهُم ، وقوله : (إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) بَدَلَ السَّفِيهِ الغَوِىِّ)(١) .

الاستعارة فى لفظى (الحليم الرشيد) ، والمراد – والله تعالى أعلم – السفيه الغوى ، شبهوا السفاهة والغواية بالحلم والرشد بتنزيل التضاد منزلة التناسب ، ثم استعير الحلم والرشد للسفاهة والغواية ، ثم اشتق منهما (الحليم الرشيد) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية التهكمية .

وهذه الجملة محكية على لسان قوم شعيب جوابا عن دعوته لهم إلى عبادة الله الذى لاإله غيره ، وأن لا ينقصوا المكيال والميزان ، فكان جوابهم تهكما وسخرية من شعيب – عليه السلام – ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِى أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾؟ فاستخفوا بدعوته إلى عبادة الله بهذا الاستفهام المملوء بروح الإنكار والتهكم والسخرية : (أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) ، وأجابوا دعوته إياهم إلى أن لاينقصوا المكيال والميزان وأن لايبخسوا الناس أشياءهم فأضافوا إلى الاستفهام السابق قولهم : ﴿ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِى أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ ، ثم جعلوا خاتمة جوابهم أن رموا شعيبا بالسفاهة والغواية وأن ما دعاهم إليه لا يقول به عاقل رشيد فقالوا : ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ قال جار الله : " وأرادوا بقولهم : ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ نسبته إلى غاية السفه والغىِّ ، فعكسوا ليتهكموا به كما يتهكم بالشحيح الذي لا يَبِضُّ حَجَرُه ، فيقال له : لو أبصرك حاتم لسجد لك . وقيل: معناه إنك للمتواصف بالحلم والرشد فى قومك ، يعنون أنَ ما تأمر

---

(١) الإيضاح مع البغية ٣/ ١٢٢ . وهذا كله مقتبس من المفتاح ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

به لا يطابق حالك وما شُهِرَتْ به) (١) ، وقال صاحب التحرير والتنوير : " وجملة ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ استئناف تهكم آخر ، وقد جاءت الجملة مؤكدة بحرف (إنَّ) ولام القسم ، وبصيغة القصر فى جملة (لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) فاشتملت على أربعة مؤكدات " (٢) .

والآية شاهد مشهور فى كتب اللغة لاستعمال اللفظ فى ضد معناه على سبيل التهكم والهزء والسخرية (٣) ، واستشهد بها ابن أبى الإصبع لائتلاف الفاصلة مع الآية قال : (إن هذه الآية الكريمة لما تقدم فيها ذكر العبادة والتصرف فى الأموال كان ذلك تمهيداً تاماً لذكر الحلم والرشد ؛ لأن "حلم : العقل الذي يصح به التكليف ، والرشد حسن التصرف في الأموال)(٤) .

١٦- قولُه تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ (٥) .

استشهد به الخطيب لأن الاستعارة التبعية فى الحرف تجرى فيما دخل عليه الحرف لا فى معنى الحرف نفسه كما هو مذهب السكاكى ، قال الخطيب : (إن التشبيه فى الحروف لمتعلَّقات معانيها ، فيُقَدَّر التشبيه فى

---

(١) الكشاف : ٢/٢٨٧

(٢) التحرير والتنوير : ١٢/١٤٢ .

(٣) ينظر الصاحبى فى فقه اللغة لابن فارس ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ بتصرف نشر الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣ م .

(٤) تحرير التحبير ص ٢٢٤

(٥) القصص : ٨ .

لامِ التعليلِ فى قَولِه تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ للعَدَاوَةِ والحَزَنِ الحاصِلَيْنِ بعدَ الالتقاطِ بالعِلَّةِ الغائيَّةِ للالتقاطِ) (١) .

الاستعارة عند الخطيب فى مدخول الحرف وهو العداوة والحزن ، فيقال فى إجراء الاستعارة على رأيه : " شبه العداوة والحزن بالعلة الغائية للالتقاط وهى التبنى وقرة العين ؛ إما على طريق التهكم إشارة إلى أن ذلك فعل الجاهل بالعواقب ... وإما على طريق التشبيه الحقيقى ، ويكون وجه الشبه مطلق الترتُّب فى كل ، ثم استعيرت اللام من العلة الأصلية وهى المحبة والتبنى فاستعملت فى العداوة والحزن على سبيل الاستعارة التبعية ؛ لأن الاستعارة فى اللام تبع للاستعارة فى المجرور ؛ لأن اللام لاتستقل"(٢).

ويقال فى إجراء الاستعارة فى الآية على رأى السكاكى الذى يرى أن الاستعارة فى معنى الحرف لا فى مدخوله : شبه ترتب العداوة والحزن على الالتقاط بترتب المحبة والتبنى عليه بجامع مطلق الترتب ، ثم سرى التشبيه من الكليات إلى الجزئيات ، ثم استعيرت اللام من ترتب المحبة والتبنى لترتب العداوة والحزن على سبيل الاستعارة التبعية (٣) .

وفى الاستعارة إيجاز واضح ؛ وتقدير الكلام : " فالتقطه آل فرعون ليكون لهم قرة عين ينفعهم أو يتخذونه ولدا ، فآلت عاقبته إلى أن كان لهم عدوا وحزنا " ، وقد صرحت امرأة فرعون بالعلة الحقيقية للالتقاط فيما

---

(١) الإيضاح مع البغية ٣/ ١٢٢ .

(٢) مواهب الفتاح : ٤/ ١٢٠ ، ١٢١ بتصرف .

(٣) ينظر المفتاح ٣٣١ والمطول ٣٧٦ ونظرات فى البيان د . الكردى ص ٢٠٨ مطبعة السعادة ط ثانية ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م

حكاه القرآن عنها : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾(١) .

الاستعارة تدل على أن العداوة والحزن كانا سبب الالتقاط ، وكأن الفرح والحبور وقرة العين ٠٠٠الخ ، كل ذلك توارى خلف هذه العلة وتنوسى ، كأن لم يكن فى موسى شىء من ذلك ألبتة ؛ لأن العاقبة التى آل إليها أمره ، وهى زلزلة ألوهية فرعون وإبطالها إبطالا ، بل أن يكون هلاك فرعون على يديه ، كل ذلك أنسى أُنْسَ الالتقاط وحلاوة الأمل المرجو عنده، وأنسى ما كان منه رضيعا وطفلا صغيرا ينشأ فى حجر فرعون وامرأته يؤنسهما ويكون فرحا وسرورا لهما برؤيته وحركته وكلمته وفعله ولعبه وجده ٠٠٠الخ ٠ الاستعارة طوت ذلك كله ، وقصدت إلى العاقبة والخاتمة قصدا ، وطوحت بما دون ذلك فى واد سحيق ، وهذا الطىَ مقصود فى القرآن الكريم الذى لم يذكر عن نشأة موسى فى حجر فرعون كلمة ، واكتفى فى ذلك بما امتن به فرعون على موسى حين ذكَّره بهذه المرحلة فى قوله ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ (٢) .

هذه اللام كأنما طُوِى بها الزمن طيًّا ، وكأن العداوة والحزن هما كلُ ما كان فى موسى عند التقاطه ، بل هما كالعلة الحقيقية لالتقاطه، وكأن فرعون كان يبحث عن عدو وحزن لا عن ولد وقرة عين ، فاللام تبين التضاد الظاهر والتناقض التام بين العاقبتين : العاقبة المرجوة والعاقبة الواقعة الحاصلة ، ويا بُعْدَ ما بينهما ! وهكذا إذا انكشفت الحجب وعُرِفَتِ

---

(١) القصص : ٩ ٠

(٢) الشعراء : ١٨ ٠

العواقب قد تبدو الأشياء التى نرجوها ونؤمِّل فيهـا الخيـر هـى أسـباب المعاطب وهى المهالك ، كما قد تبدو الأشياء التى نحذرها ونخشـاها هـى أسباب النجاة والسعادة ، وقديما ما قال البحترى :

وَلَوَ أَنَّنى أُعْطى التَجاربَ حَقَّها فيما أَرَت لَرَجَوتُ ما أَخشاهُ
وَالشَىءُ تُمنَعُهُ يَكـونُ بِفَوتِهِ أَجْدَى مِنَ الشَىءِ الَّذى تُعْطاهُ

وفى الاستعارة معنى آخر جليل ومهم فى سياقه ، وهو أنها تستعمل فى مقام الجهل بعاقبة الأمر ، والجاهل بعواقب الأمور لا يكون إلها ؛ ففيها تكذيب لفرعون وإبطال لادعائه الألوهية والربوبية فى مثل قوله فى سـورة القصص التى فيها الاستعارة :﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِى ﴾ (١) ؛ ولذا ختمت آية الاستعارة بعد قوله تعالى ﴿ فَالْتَقَطَـهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ بقوله ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَـا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ بوضع الظاهر موضع الضمير ، فلم يقل : " إنهـم كـانوا خاطئين " يعنى آل فرعون الذين التقطوا موسـى عليـه السـلام ؛ وفيـه احتراس من دخول امرأة فرعون فى زمرة الخاطئين ، وهى التى ضـربها الله جل جلاله مثلا للذين آمنوا . ولاحظ تقديم فرعون على من بعده مـن الخاطئين وهما (هامان والجنود) لأن ذلك فى حق فرعون أنكـى وأشـد لادعائه الألوهية ؛ ليكون إلها خاطئا جاهلا بالعواقب !!

وذكر شيخنا الدكتور محمد الأمين الخضرى من أسرار هذه الاستعارة (أن النظم الحكيم أراد إظهار قدرة الله الباطشة فى تسخير فرعون وملئه – وهم الذين أسالوا دماء جيل من أطفال بنى إسرائيل من أجل الوصول إلـى

---

(١) القصص : ٣٨ .

دم موسى – لإرادته تعالى ، فيلتقطونه وكأنهم يعلمون أنهم يسيرون إلى نهايتهم المحتومة ، ويضعون نهاية ملكهم بأيديهم ، كما يتجرع المنتحر السم بيده لإنهاء حياته ؛ وهذا إبراز لكمال قدرة الله تعالى،ونفاذ إرادته)([1])

وآية ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ من أبرز شواهد هذه اللام ، ونظيرها فى القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ ([2])، ومن الباب قوله جلّ ثناؤه : ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ ([3]) .

وفى خزانة الأدب ([4]) بحث جليل حول هذه اللام التى تسمى عند الكوفيين لام العاقبة ، وهى عند الزمخشرى والبصريين لام التعليل ، إلا أن التعليل فيها على سبيل المجاز ، ومما ذكر من شواهدها الشعرية قول أبى العتاهية :

لِدوا لِلمَوتِ وَابنوا لِلخَرابِ فَكُلُّكُمُ يَصيرُ إِلى ذَهابِ

([1]) من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم د / محمد الأمين الخضرى ص ٢٦٠ مطبعة الأمانة بالقاهرة) .

([2]) آل عمران : ١٧٨ .

([3]) يونس : ٨٨ ، ينظر أدب الكتاب للصولى ص ١٣٥ نشره محمد بهجة الأثرى ط دار الكتب العلمية بيروت ، والصاحبى فى فقه اللغة ص ١٥٢

([4]) خزانة الأدب للبغدادى ٥٢٩/٩ ت عبد السلام هارون ط الخانجى ط أولى ١٤٠١ هـ /١٩٨١ م ..

١٧- قَولُه تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١).

استشهد بها الخطيب للاستعارة المُرَشَّحةُ ، وهى التى قُرِنَتْ بما يُلائمُ المستعارَ منه ، (والترشيح فى اللغة : أن تُرَشِّحَ الأُمُّ ولدَها باللبن القليل تجعله فى فيه شيئا بعد شىء حتى يَقْوَى على المَصِّ ، يقال : " فلان يُرَشَّحُ للوزارة " أى يُرَبَّى ويُؤَهَّل لها ، وقيل : أصله تَرْشِيحُ الظبيةِ ولدَها ، وهو أن تعوده المشى ، ورَشَحَ الغزالُ : إذا مشى ونَزَا ، فهو راشِحٌ . وترشيح المجاز فى الاصطلاح : أن تقرنه بصفة أو تفريع كلام يلائم المستعار منه دون ما يلائم المستعار له ؛ وسميت بذلك لأن الاستعارة مبنية على تناسى التشبيه حتى كأن الموجود فى نفس الأمر هو المشبه به دون المشبه وأن اسمه هو الذى يطلق على معنى الطرفين لكونهما من حقيقة واحدة) (٢)

الاستعارة فى لفظ " اشْتَرَوُا " بمعنى اختاروا أو استبدلوا ، شبه الاختيار بالشراء لأن فى كل منهما أخذ شىء وترك آخر . وهى استعارة تصريحية تبعية فى الفعل وذكر الربح والتجارة ترشيح لها لأنهما مما يلائم المستعار منه وهو الاشتراء .

قال الخطيب : (استعارَ الاشتراءَ للاختيارِ ، وقَفَّاهُ بالرِّبْحِ والتِّجارةِ اللَّذَينِ هما مِن متعلَّقاتِ الاشتراءِ ، فنَظَرَ إلى المستعارِ مِنه) (٣) .

---

(١) البقرة : ١٦ .

(٢) حاشية السيد الشريف على الكشاف : ١/١٩٣(مطبوع مع الكشاف) . ومواهب الفتاح ٤/١٣٠ .

(٣) الإيضاح مع البغية ٣/ ١٢٦ .

قال الشريف الرضى (وهذه استعارة والمراد أنهم استبدلوا الغى بالرشاد والكفر بالإيمان ، فخسرت صفقتهم ، ولم تربح تجارتهم ؛ وإنما أطلق سبحانه على أعمالهم اسم " التجارة " لما جاء فى أول الآية بلفظ " الشراء " تأليفا لجواهر النظام ، وملاحمة بين أعضاء الكلام) (١) .

وقال جار الله : (معنى اشتراء الضلالة بالهدى اختيارها عليه واستبدالها به على سبيل الاستعارة ؛ لأن الاشتراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر ... فإن قلت : كيف اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى ؟ قلت : جُعِلُوا لتمكُّنِهم منه وإعراضِه لهم كأنه فى أيديهم ، فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عَطَّلُوه واستبدلوها به ؛ ولأن الدين القَيِّم هو فطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها ، فكل من ضل فهو مستبدِلٌ خلاف الفطرة ...فإن قلت : هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازا فى معنى الاستبدال ، فما معنى ذكر الربح والتجارة كأن ثَمَّ مبايعةً على الحقيقة ؟ قلت : هذا من الصنعة البديعة التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تُسَاقَ كلمةٌ مَسَاقَ المجاز ، ثم تُقَفَّى بأشكالٍ لها وأخواتٍ ، إذا تلاحَقْنَ لم تَرَ كلاماً أحسنَ منه ديباجةً وأكثرَ ماءً ورونقا ، وهو المجاز المرشَّحُ ... لما ذكر سبحانه الشراء أتبعه ما يشاكله ويواخيه وما يَكْمُلُ ويَتِمُّ بانضمامه إليه ؛ تمثيلا لخسارهم وتصويرا لحقيقته . فإن قلت : فما معنى قوله : " فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين " ؟ قلت : معناه أن الذى يطلبه التجار فى متصرفاتهم شيئان : سلامة رأس المال ، والربح . وهؤلاء قد أضاعوا

---

(١) تلخيص البيان فى مجازات القرآن : ٣٠ ، ٣١ .

الطلبتين معا ؛ لأن رأس مالهم كان هو الهدى ، فلم يبق لهم مع الضلالة)(١) .

والاستعارة وترشيحها يصوران أننا أمام شراء وتجارة على الحقيقة، وأن الإنسان فى الدنيا فى سوق كبيرة ، ينبغى عليه أن يزن أعماله فيها بميزان الربح والخسارة ، فالربح ما كان فى طاعة الله تعالى ورضوانه ، والخسارة ما كان فى معصيته سبحانه ، وقد حرص الذكر الحكيم على إبراز هذه الصورة : صورة التجارة والربح والخسارة ، وتأمل قوله عز اسمه : (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ) (٢) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) . ومن كلام المعصوم صلى الله عليه وسلَّم قوله : ﴿ بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا ، وَيُمْسِي كَافِرًا ، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا ، وَيُصْبِحُ كَافِرًا ؛ يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا ﴾ (٤) وقول الرسول صلى الله عليه وسلم لصُهَيب – رضى الله عنه – حين قَدِم مهاجرا تاركا لفتيان قريشا مقابل الهجرة ماله كله : " يا أبا يحيى ، ربِحَ البيع " ثلاثا (٥) .

---

(١) الكشاف : ١/ ١٩٠ – ١٩٥ بتصرف .

(٢) فاطر : ٢٩ .

(٣) الصف : ١٠ – ١١

(٤) صحيح مسلم ١ / ٢٩٧ باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن ، برقم ١٦٩ .

(٥) المستدرك على الصحيحين للحاكم ١٣/ ١٧٦ ذكر مناقب صهيب برقم : ٥٧٢٩ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه .

ويرى الطيبى أن الآية اجتمع فيها الترشيح والتجريد ، فالترشيح فى قوله تعالى " فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ " والتجريد فى قوله تعالى " وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ " ، قال السبكى : " وفيه نظر " (١) ، والذى حمل الطيبى على اعتبار أن قوله تعالى " وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ " تجريدا أنه فسر الهداية هنا بالهداية إلى الإيمان كما هو ظاهر اللفظ ، ولكن جار الله ذكر

أن معناها "وما كانوا مهتدين لطرق التجارة كما يكون التجار المتصرفون العالمون بما يربح فيه ويخسر " ، فجعلها جار الله من ملائمات الاشتراء ، فكأن الترشيح عنده كان بثلاثة أمور : ذكر الربح ، وذكر التجارة ، وذكر عدم الاهتداء إلى معرفة التصرف فى التجارة والعلم بما يجلب لها الربح ويدرأ عنها الخسران ، ولعل هذا هو مراد العلامة السبكى بقوله فى التعقيب على كلام الطيبى : " وفيه نظر " .

واستشهد الإمام عبد القاهر بهذه الآية فى دلائل الإعجاز فى ست مواضع ، كلها فى المجاز الحُكْمِى (أى العقلى) فى إسناد عدم الربح إلى التجارة (٢) .

ولعل من أسرار هذا المجاز العقلى – إضافة إلى ما ذكره البلاغيون من أن التجارة هى سبب الربح – أن الخاسر فى تجارته يتوارى وينكسر ولا يُظْهِرُ نفسَه بخسارته ، ولهذا لم تسند الآية عدم الربح إليه فلم تقل : " فما ربحوا فى تجارتهم " ، بل أسندت عدم الربح إلى التجارة نفسها ليتوارى أصحابها الخاسرون وراءها (كالمُفْلِس لايحب أن يُشْهَرَ إفلاسُه) لأن فى ذلك عارا وسُبَّة . والله تعالى أعلم .

---

(١) عروس الأفراح ٤/١٣١ .

(٢) ينظر دلائل الإعجاز : ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٩٦ ، ٤٢٦ ، ٤٢٩ ، ٥٢١ بتصرف .

١٨- قَولُه تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾([1])

استشهد به الخطيب للاستعارة التمثيلية التى تسمى المجاز المُرَكَّب ؛ لأن الاستعارة فيها لا تكون فى الألفاظ المفردة كاستعارة الطيران للإسراع والأسد للشجاع والبحر للكريم ، بل تكون الاستعارة التمثيلية فى هيئة مركبة من أجزاء كل جزء فيها لا مجاز فيه لأنه مستعمل فى حقيقته اللغوية، وإنما تستعار الهيئة كلها لهيئة أخرى .

ومثَّل لها الخطيب بما (كَتَبَ به الوليدُ بنُ يَزِيدَ لمَّا بُويِعَ إلى مَرْوَانَ بنِ مُحمَّدٍ ، وقد بَلَغَهُ أنه مُتَوَقِّفٌ فى البَيْعَةِ له : " أمَّا بَعْدُ ؛ فإنى أَرَاكَ تُقَدِّمُ رِجْلاً وتُؤَخِّرُ أُخْرَى ؛ فإذا أَتَاكَ كِتابى هذا فاعْتَمِدْ على أَيِّهِما شِئْتَ ، والسَّلام" ، شَبَّه صُورةَ تَرَدُّده فى المُبَايَعَةِ بصُورَةِ تَرَدُّد مَنْ قامَ لِيَذْهَبَ فى أَمْرٍ ؛ فَتَارةً يُرِيدُ الذَّهابَ فيُقَدِّمُ رِجْلاً ، وتَارةً لا يُرِيدُ

فيُؤَخِّرُ أُخْرَى) ([2]) . فالألفاظ المفردة (أَرَاكَ - تُقَدِّمُ - رِجْلاً - تُؤَخِّرُ - أُخْرَى) كلها مستعملة فى معانيها الحقيقية ، والاستعارة فى أن شبهت هيئة المتردد فى البيعة بهيئة المتردد فى الذهاب لأمر ما فتارة يريد الذهاب فيقدم رجلا ، وتارة لا يريد فيؤخرها .

قال الخطيب : (وكذا قَولُه تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ " فإنه لما كان التقدُّمُ بينَ يَدَيِ الرَّجُلِ خارجاً عن

([1]) سورة الحجرات : ١ .

([2]) الإيضاح مع البغية ٣/ ١٣١ .

صفةِ المتابعِ له ، صار النَّهْىُ عن التَّقَدُّمِ مُتَعلِّقاً باليَدَينِ مَثَلاً للنَّهْىِ عن تَرْكِ الاتِّباع) (١) .

وهذا مقتبس من قول الإمام عبد القاهر : (ومن الظاهر فى كون الشبه مأخوذاً ما بين اليد وغيرها قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِه﴾ المعنى على أنهم أُمِروا باتِّباع الأمر ، فلما كان المتقدِّم بين يدى الرَّجُل خارجاً عن صفة المتابع له ، ضَرَب جملةَ هذا الكلام مَثَلاً للاتباع فى الأمر ، فصار النَّهى عن التقدُّم متعلّقاً باليد نهياً عن تَرْكِ الاتباع ، فهذا مما لا يخفى على ذى عقل أنه لا تكون فيه اليدُ بانفرادها عبارة عن شىء ، كما قد يُتوهَّم أنها عبارة عن النعمة ومتناولةٌ لها ، كالوضع المستأنَف ، حتى كأنْ لم تكن قَطُّ اسمَ جارحة) (٢) .

وذكر الزمخشرى فائدة الاستعارة التمثيلية فى الآية وفضلها على أسلوب الحقيقة الذى سماه الزمخشرى " الكلام العُرْيان " قال : (جرت هذه العبارة ههنا على سنن ضرب من المجاز ، وهو الذى يسميه أهل البيان تمثيلا ؛ ولجريانها هكذا فائدة جليلة ليست فى الكلام العُرْيان : وهى تصوير الهُجْنَةِ والشناعة فيما نُهُوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة ، والمعنى : أن لا تقطعوا أمرا إلا بعد ما يحكمان به ويأذنان فيه ، فتكونوا إما عاملين بالوحى المنَزَّل ، وإما مقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم) (٣)

---

(١) الإيضاح مع البغية ٣/ ١٣٢ .
(٢) أسرار البلاغة ص ٣٥٧ .
(٣) الكشاف ٣/ ٥٥٣ .

الاستعارة تمثل من ترك إتباع الله تعالى وإتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يقف عند حدود الله تعالى ، بصورة من يتقدم فيقف بين يدى الله تعالى وبين يدى رسوله صلى الله عليه وسلم ، يضع نفسه موضع المتبوع لا التابع ، وفى هذا ما فيه من الجفاء والغلظة وسوء الأدب ، وتلك هى الهجنة والشناعة التى ذكرها العلامة الزمخشرى ٠ التمثيل يبرز هذه المعانى فى صورة محسوسة تزيد تلك المخالفة نكارة وشناعة ، وتمثل له فَعلته تصويرا يرى قبحه بعينيه ، يرى نفسه يتقدم بين يدى الله تعالى الذى خلقه فسواه فعدَله فى أى صورة ما شاء ركبه ، والذى رزقه وأطعمه وسقاه ، ويرى نفسه يتقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذى جاءه بالهدى والنور فأخرجه الله تعالى به من ظلمات الكفر والجهالة إلى نور الهدى والإيمان ، وما أشد قسوة هذا وأفظعه وأقبحه !! عاملنا الله تعالى بعفوه ولطفه ، وتجاوز عنا بفضله وكرمه ٠

وذكر شيخنا أبو موسى أنه (ليس المراد النهى عن أن يتقدموا بين يدى الله تعالى ، وإنما المراد النهى عن أن يتقدموا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر لفظ الجلالة للإشارة إلى أن التقديمَ بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم تقديمٌ بين يدى الله تعالى) ([1])٠

([1]) دلالات التراكيب د محمد أبو موسى ٢٧٧ نشر مكتبة وهبة ط ثانية ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧م٠

١٩- قَوْلُه تعالى :﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ([١]) .

استشهد به الخطيب للاستعارة التمثيلية التى تسمى المجاز المُرَكَّب – كما فى الآية السابقة – قال الخطيب : (وكذا قَوْلُه تعالى : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ؛ إذ المعنى – والله أعلم – أنَّ مَثَلَ الأرضِ فى تَصَرُّفِها تحتَ أمرِ الله تعالى وقُدرتِه مَثَلُ الشىءِ يكونُ فى قَبْضَةِ الآخذِ له منَّا والجامعِ يَدَهُ عليه) ([٢]).

وكلام الخطيب فى هذه الجملة القرآنية ، وفى قوله تعالى بعدها ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ مقتبس من قول الإمام عبد القاهر : (إنَّ المعنى – واللَّه أعلم – أن مَثَل الأرض في تصرُّفها تحت أمر اللَّه وقدرته ، وأنه لا يشذّ شيءٌ مما فيها من سلطانه عزّ وجلّ ، مَثَلُ الشيء يكون فى قبضة الآخذ له منّاً والجامع يَدَه عليه ، كذلك حقُّنا أن نسلك بقوله تعالى : " وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِه" هذا المسلك ، فكأنّ المعنى – واللَّه أعلم – أنه عزّ وجلّ يخلق فيها صفةَ الطيِّ حتى تُرَى كالكتاب المطويِّ بيمين الواحد منكم ، وخصَّ اليمين لتكون أعلى وأفخمَ للمَثَل) ([٣]) .

واستشهد الإمام بهذه الآية فى مقام التفريق بين لفظ (اليد) حين يستعمل بمعنى القدرة أو العطاء فيؤخذ المعنى من متن الكلمة وحدها ، وبين أن يؤخذ المعنى منها مع ضميمة شى آخر يُذْكَرُ معها كما فى الآية ،

([١]) سورة الزمر : ٦٧ والآية بتمامها : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

([٢]) الإيضاح مع البغية ٣/ ١٣٢ .

([٣]) أسرار البلاغة ص ٣٥٩

فالشبه فى الآية لا يؤخذ من لفظ اليمين فقط بل لا بد من مراعاة لفظ الطىّ الذى ذُكِر معها ، ولذا كانت الصورة من باب الاستعارة التمثيلية ، بخلاف الحالة الأولى فالمجاز فيها من باب المجاز المرسل الذى علاقته السببية لأن اليد سبب فى القدرة والعطاء ، وفرق بين أن يكون مركز الدلالة كلمة مفردة ، وأن يكون خيوطا متشابكة (١) .

٢٠- قَولُه تعالى :﴿ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ (٢) .

استشهد به الخطيب للاستعارة التمثيلية – كما فى قَولِه تعالى : " وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " ؛ شبهت السماوات فى كونها تحت تَصَرُّفِه تعالى وقُدرتِه بالكتاب المطوى فى يمين القابض عليه ، ثم استعيرت هيئة المشبه به للمشبه استعارة تمثيلية . قال الخطيب : (وكَذَا قَولُه تعالى: ﴿ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ أي يَخْلُقُ فيها صفَةَ الطَّىّ حتى تُرَى كالكتابِ المَطْوِىّ بيَمِينِ الواحدِ منَّا ، وخَصَّ اليَمِينَ لِيَكُونَ أعْلَى وأفْخَمَ لِلْمَثَلِ؛ لأنها أشْرَفُ اليدين وأقواهُما ، والتى لا غَناءَ للأُخْرَى دُونَها ، فلا يَهَشُّ إنسانٌ لشىءٍ إلا بَدَأَ بيَمِينِه فهَيَّأها لِنَيْلِه ، ومتى قُصِدَ جَعْلُ الشىءِ فى جِهةِ العِنايةِ جُعِلَ فى اليَدِ اليُمْنَى ، ومتى قُصِدَ خِلافُ ذلك جُعِلَ فى اليُسْرَى، كما قال ابنُ مَيَّادَة :

أَلَم تَكُ فى يُمنى يَدَيكَ جَعَلْتَنى ... فَلا تَجْعَلَنِّى بَعدَها فى شِمالِكا

---

(١) ينظر التصوير البيانى ٢٤٧ .

(٢) سورة الزمر : ٦٧ .

أى : كنتُ مُكْرَماً عندكَ فلا تجعلنى مُهاناً ، وكنتُ فى المكانِ الشَّرِيفِ منك فلا تَحُطَّنِى فى المنزلِ الوَضيع . كذا إذا قُلْتَ للمخلُوقِ : " الأَمْرُ بيَدِكَ " أَرَدْتَ المَثَلَ ، أى الأمرُ كالشىءِ يَحْصُلُ فى يَدِكَ فلا يَمْتَنِعُ عليك) (١) .

وقال جار الله عن الاستعارتين فى قوله تعالى ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ : (الغرض من هذا الكلام إذا أخذتَه كما هو بجملته ومجموعه ، تصويرُ عظمته ، والتوقُّفُ على كنه جلاله لا غير ، من غير ذَهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز ... فيقع الفهم فى أول شىء وآخره على الزُّبْدةِ والخُلاصة ، التى هى الدلالة على القدرة الباهرة ، وأن الأفعال العِظَامَ التى تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتنهها الأوهام – هَيِّنَةٌ عليه هواناً لا يُوْصِلُ السامعَ إلى الوقوف عليه إلا إجراءُ العبارة فى مثل هذه الطريقة من التخييل ، ولا ترى بابا فى علم البيان أدقَّ ولا أرقَّ ولا ألطفَ من هذا الباب ، ولا أنفعَ ولا أعونَ على تعاطى تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى فى القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء ، فإن أكثرَه وعِلْيَتَه تخييلاتٌ قد زلت فيها الأقدام قديما ، وما أُتِىَ الزَّالُّون إلا من قِلَّةِ عنايتهم بالبحث والتنقير ، حتى يعلموا أن فى عداد العلوم الدقيقة علماً لو قَدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ لما خَفِىَ عليهم أن العلوم كلَّها مُفتقِرةٌ إليه وعِيالٌ عليه ؛ إذ لا يَحُلُّ عُقَدَها المُؤَرِّبَةَ ، ولا يَفُكُّ قيودَها المُكْرِبَةَ إلا هو ، وكم آيةٍ من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول قد ضِيمَ وسِيمَ الخَسْفَ بالتأويلات الغَثَّةِ والوجوهِ الرَّثَّة ، لأن مَن

---

(١) الإيضاح مع البغية ٣/ ١٣٢، ١٣٣ . وكلام الخطيب مقتبس من أسرار البلاغة ص ٣٥٩

تَأَوَّلَ ليس من هذا العلم فى عِيرٍ ولا نَفِير ، ولا يَعْـرِفُ قَبِـيلاً منـه مـن دَبِير)(١) .

هذا ، ومذهبُ السلف وأهل السنة فى هذه الآية ونظائرها حملها على الحقيقة بلا مجاز ولا اتساع . ويؤيد حملها على الحقيقة فى هذه الآية مـا جاء فى حديث أَبى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – قال سمعت رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يقول : ﴿ يَقْبِضُ اللهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِى السماوات بِيَمِينِهِ ثُـمَّ يقول أنا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الأرض ﴾ (٢)، ويؤيد حملها على الحقيقة أيضـا تقييد الصورة بأنها تكون (يَوْمَ الْقِيَامَـةِ) ، وأحـداث القيامـة وأهوالهـا وأفزاعها غيب لا نقطع فيه بالمجاز ، والذين حملوا الصورة على المجـاز من المحققين كالإمام عبد القاهر والزمخشـرى وغيرهمـا ، بينـوا أنهـا استعارة تمثيلية ، والمجاز يمنع من إرادة المعنى الحقيقى . فيمنع مـن أن يكون ثمة قبض للأرض وطى للسماوات على الحقيقة ، وإنما المراد الدلالة على كمال تصرفه تعالى فيهما كما يتصرف الجامع يدَه على الشىء فيه .

وقوله تعالى فى تذييل الآية (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) تنزيـه لجلاله عما لايليق به من معانى التشبيه التى تعرض للجهال والمشـبِّهة ، والقبض والطى بيمينه تعالى هو بلا تشبيه ولا تجسيد ، بل فى إطار قولـه تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٣) ، فله يد ولكن ليسـت

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٠٨ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه ١٨١٢/٤ ، بَاب قَوْلِهِ " وَالْأَرْضُ جميعا قَبْضَـتُهُ يـوم الْقِيَامَـةِ والسماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ " حديث رقم ٤٥٣٤ .

(٣) الشورى : ١١ .

كأيدينا وقبضٌ ليس كقبضنا ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ؛ ولـذا ذيلـت الآية بكلمة التنزيه ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ٠ والله تعالى أعلم ٠

وبيت ابن ميادة (أَلَم تَكُ فى يُمنى يَدَيكَ جَعَلْتَنى ٠٠٠) من شـواهد ابن أبى الإصبع ، ومنه اقتبس الخطيب تعليقه ، قال ابن أبـى الإصبـع وفى كلامه مزيـد تفصيل وتحليل : (ومن شواهد التمثيل الشـعرية قـول الرَّمَّاح بن مَيَّادة :

أَلَم أَكُ فى يُمنى يَدَيكَ جَعَلْتَنى فَلا تَجْعَلَنِّى بَعدَها فى شِمالِكا

فإن هذا الشاعر أراد أن يقول : ألم أكن قريباً منك ، فلا تجعلنى بعيداً عنك ، فعدل عن هذا اللفظ الخاص إلى لفظ التمثيل ، لما فيه من الزيادة فى المعنى ، لما تعطيه لفظتا اليمين والشمال من الأوصاف التى لا تحصـل إلا بذكرهما ، وذلك لأن اليمين أشد قوة من الشمال غالباً ، وهى أقـرب إلـى ربها من الشمال لأنها بها يأخذ ، وبها يعطى ، وبها يبطش ، وهى مُكَرَّمَـةٌ عنده ، قد أُهِّلَتْ لطعامه وشرابه واستغفاره وأذكـاره ، والشـمال مؤهلـة لاستنجائه واستنثاره والمهنة الدنية ، واسم اليمين مشتق من اليُمْنِ ، وهو البركة ، واسم الشمال مشتق من الشؤم ، وهو ضد البركة ، ولهذا حَـضَّ الشارعُ صلى الله عليه وسلم على التيـامن ، فكـأن هـذا الشـاعر قـال لممدوحه: ألم أكن مكرماً عندك فلا تجعلنى مهاناً ، وكنت منك فى المكـان الشريف ، فلا تتركنى فى المنزل الوضيع) (١) ٠ وهذا يدل على أن كتـاب تحرير التحبير كان مصدرا من مصادر الخطيب فى كتاب الإيضاح٠

---

(١) تحرير التحبير ص ٢١٥، ٢١٦ وماتحته خط هو ما اقتبسه الخطيب فى تعليقه علـى بيـت ابن ميادة٠

وقول الخطيب عن اليد اليمنى:"إنها أَشْرَفُ اليدينِ وأقواهُما ٠٠٠الخ" مقتبس من قول الإمام عبد القاهر : " وذاك أنها أشرف اليدين وأقواهما ، والتي لا غَنَاءَ للأخرى دونها ، فلا عُنِىَ إنسانٌ بشىء إلا بدأ بيمينه فهيّأها لِنَيْله ، ومتى ما قَصَدُوا جَعْلَ الشىء فى جهة العناية ، جعلوه فى اليد اليمنى " (١) ٠

وقول الخطيب : (كذا إذا قُلْتَ للمخلُوقِ : " الأَمْرُ بيَدِكَ " أَرَدْتَ المَثَلَ، أى الأمرُ كالشىءِ يَحْصُلُ فى يَدِكَ فلا يَمْتَنِعُ عليك) مقتبس حرفيا من أسرار البلاغة (٢) ٠ وحاصله أن قولنا : " الأمر بيدك " استعارة تمثيلية شُبِّهتْ هيئة تمكنه من أمر ما وعدم امتناعه عليه بهيئة من يكون الشىء فى يده وقبضته ، ثم حذفت هيئة المشبه واستعيرت لها هيئة المشبه به ٠

٢١- قَولُه تعالى :﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾ (٣) ٠

استشهد به الخطيب للاستعارة التمثيلية – كما فى الآيتين السابقتين ، شُبِّهَتِ الحالة الناشئة عن الغضب بالحالة الناشئة عن إغراء مُغْرٍ ، واستعيرت الحالة الثانية للأولى على طريق التمثيل (٤)٠ قال (وكذا قَولُه تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾ ، قال الزَّمَخْشَرِىُّ : (كأنَّ الغضبَ كان يُغْرِيه على ما فَعَلَ ، ويقولُ له : " قُلْ لقَومِكَ كذا ، وأَلْقِ

---

(١) أسرار البلاغة ٣٦١ ٠

(٢) ينظر أسرار البلاغة ٣٥٩ ٠

(٣) الأعراف : ١٥٤ وتمام الآية : (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ) ٠

(٤) ينظر البغية ١٣٣/٣.

الألْوَاحَ ، وجُرَّ برأْسِ أَخِيكَ إليك " ، فتَرَكَ النُّطْقَ بذلك ، وقَطَعَ الإغْـرَاءَ . ولم يَسْتَحْسِنْ هذه الكلِمَةَ ولم يَسْتَفْصِحْهَا كُـلُّ ذى طَبْـعٍ سَـليمٍ وذَوْقٍ صحيحٍ إلا لذلك ؛ ولأنه من قَبِيلِ شُعَبِ البلاغَةِ ؛ وإلا فما لِقراءةِ مُعاويـةَ ابنِ قُرَّةَ : (ولمَّا سَكَنَ عَنْ مُوسَى الغَضَبُ) لا تَجِدُ النَّفْسُ عِندَها شَيئاً من تلك الهِزَّةِ ، وطَرَفاً مِن تلك الرَّوْعَة) (١) .

وعلق عليه ابن المنير فقال : (وهو من قلب الحقيقة إلى المجـاز ، وكان الأصل : " ولما سكت موسى عن الغضب " ؛ ولذلك عده بعض أهـل العربية من المقلوب ، وسلكه فى نمـط : " خـرق الثـوبُ المسـمار " ، والتحقيق أنه ليس منه ، وأن هذا القلب أشرف وأفصح ؛ لأنه بما له على معنى بليغ ، وهو أن الغضب كان متمكنا من موسى حتى كان كأنه يُصَرِّفُه فى أوامره ، وكل ما وقع منه حينئذ فعن الغضب صادر ، حتى كأنـه هـو الذى أمره به ، ومثل هذه النكتة الحسناء لاتُلْفَـى فـى : " خَـرَقَ الثـوبُ المسمار ") (٢) .

درس الخطيب هذه الاستعارة وبين يديه من تراث البلاغيين الـذين تناولوها مؤلفات خمسة من أعلام البلاغة ، وهم على ترتيـب وفيـاتهم : الرمانى ت ٣٨٦ هـ ، والعسكرى ت ٣٩٥ هـ ، والشـريف الرضـى ت ٤٠٤ هـ ، والزمخشرى ت ٥٣٨ هـ ، والرازى ٦٠٦ هـ ، وهـؤلاء العلماء جميعا – إلا الزمخشرى – يدل كلامهم على أن الاستعارة فى الآيـة من الاستعارة فى المفرد حيث استعير السكوت للسكون وانتفاء الغضب أما

(١) الإيضاح مع البغية ٣/ ١٣٢، ١٣٣ . ونص الزمخشرى فى كشافه : ٢/١٢٠ .

(٢) الانتصاف لابن المُنَيِّر ٢/ ١٢٠ مطبوع بحاشية الكشاف .

الزمخشرى فانفرد بأن الاستعارة تمثيلية ، فتــرك الخطيــب رأى هــؤلاء العلماء الأربعة وأخذ برأى الزمخشرى ؛ وهذا يــدل علــى أنــه اختــاره واستصفاه .

ولا بأس أن نورد ماذكره العلماء الأربعــة تتميمــا للفائــدة ، قــال الرمانى: (وحقيقته [أى وحقيقة قوله تعالى "وَلَمَّا سَــكَتَ عَــنْ مُوسَــى الْغَضَبُ "] : انتفاء الغضب ، والاستعارة أبلغ ؛ لأنه انتفى انتفاء مُراصِــدٍ بالعودة ، فهو كالسكــــوت على مراصدة الكلام بما توجبه الحكمــة فــى الحال ، فانتفى الغضب بالسكوت عما يكــره ، والمعنــى الجــامع بينهمــا الإمساك عما يكره) ([1]) . وكلام العسكرى فى الصناعتين صورة منه .

وقال الشريف الرضى : (وهذه من جليات الاستعارة ؛ لأن الغضــب لايوصف بالسكوت ؛ وإنما المعنى : " لما فَتَرَ عن موسى الغضب ، وخَبَــتْ جَمْرَتُه ، وكُسِرَتْ شَوكَتُه " ؛ وإنما قيل : " سكت " لأن الغضبان أبداً يَكْثُــرُ خِصَامُه ، ويعلو كلامه ، وإذا سَكَنَ غضبُه زال عنه تلك الصفة . فحسُنَ أن يقال : " سكت عنه الغضب " ؛ لأن سكوت غضبه كان السبب فــى انقطــاع ضِجَاجِه وشَغَبِه ، فلما كان الغضبُ سببَ كلام موسى لهــارون – عليهمــا السلام – وعتابه له ، ومراجعة القول بينه وبينه ، وبان له من عذر أخيــه ما سكن به غضبُه وانقطع منه عِتابُه ، جاز أن يوصف الغضب بالســكوت عنه ، وإن كان هو الساكت لا الغضب على الحقيقة) ([2]) .

([1]) النكت للرمانى ٨٧ ، ٨٨ ، وينظر الصناعتين ٢٧٢ .

([2]) تلخيص البيان ٧٧، ٧٨ .

ثم جاء الرازى فاستشهد بها لاستعارة المعقول للمعقول ، ولم يـــزد على أن قال : (والسكوت والزوال هما وصفان معقولان) ([1]) .

وذكر الشيخ عبد المتعال الصعيدى أن الاستعارة فى الآية يجـــوز أن تكون تصريحية تبعية فى الفعل (سكت) ، أو مكنية فى لفظ (الغضـــب) بتشبيهه بإنسان يسكت ([2]).

والفرق بين التبعية والمكنية والتمثيلية فـــرق فـــى تحديـــد موضـــع الاستعارة وطبيعة المعنى ، ففى التبعية تكون الاستعارة فى لفظ (ســـكت) حيث شبه انتفاء الغضب وسكونه بالسكوت ، والجامع بينهمـــا الإمســـاك و لانقطاع فى كل ، ثم استعير السكوت للسكون

واشتق منه الفعل (سكت) . وفى التعبير بالسكوت من اللطائف ما ذكره الرمانى = من الدلالة على أن انتفاء الغضب يكـــون علـــى مُرَاصَـــدَةِ العودة كالسكوت يكون على توقُّعِ الكلام متى ما دعت إليه الحاجة = ومـــا ذكره الشريف الرضى من أن السكوت هو علامة انقطـــاع الغضـــب ؛ لأن الغضب يصاحبه غالبا علو الصوت وكثرة الكلام والشغب والضَّجَاج .

وفى المكنية يكون التجوز فى لفظ (الغضب) حيث شـــبه الغضـــب بإنسان ثم حذف المشبه به ورمز له بالسكوت ، والمكنيـــة تـــدل علـــى أن الغضب صار إنسانا يتكلم ببيان ويصول بجنان ، وهى بهذا الحس تقتـــرب كثيرا من معنى التمثيلية الذى ذكره العلامة الزمخشرى واصطفاه المؤلف ؛ إلا أن التمثيلية أوسع وأرحب لما تصوره من حوار وصراع دار بين سيدنا

([1]) نهاية الإيجاز ١٨٨

([2]) ينظر البغية ١٣٣/٣ .

موسى – عليه السلام – وبين الغضب ، فالغضب يغريه ويقول لـــه : قـــل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجُرَّ برأس أخيك ، فكان الغضب متمكنـــا مـــن موسى – عليه السلام – وهو غضبٌ مأمورٌ به ومستحسَنٌ ؛ لأنه الغضـــب لله تعالى ، غضب النبى الكريم من أولى العزم لمَّـــا غيـــر قومُـــه وبـــدلوا واتخذوا من بعده من حليهم عجلا جسدا يعبدونه من دون الله تعالى ، فكان غضبا شديدا صارخا ، كأنه يُصَرِّفُ موسى فى أوامره – كمـــا ذكـــر ابـــن المُنَيِّر .

٢٢– قَولُه تعالى :﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾(١) .

استشهد به الخطيب للاستعارة التمثيلية – كما فى الآيات الســـابقة– شُبِّهَ من لم ينتفع بقلبه فلم يَنْظُرْ فيما يَنبغِى أن يَنْظُرَ فيه ولم يَفْهَمْ ولم يَعِ ، بمن عَدِمَ القَلْبَ جُمْلَةً ، ثم حذفت هيئة المشبه واستعيرت لها هيئة المشـــبه به استعارة تمثيلية .

قال الخطيب : (ومما يُبْنَى على التمثيلِ نَحْوُ قَولِه تعالى : ﴿ إِنَّ فِـــى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ معناه : " لِمَن كان له قلبٌ ناظرٌ فيما يَنبغـــى أَنْ يَنْظُرَ فيه ، وَاعٍ لِمَا يَجِبُ وَعْيُهُ " ، ولكِنْ عُدِلَ عن هذه العِبارةِ ونَحْوِها إلى ما عليه التِّلاوَةُ بقَصْدِ البِناءِ على التمثيلِ لِيُفِيدَ ضَرْباً مِن التخييـــل ؛ وذلك أنه لمَّا كان الإنسانُ حينَ لا يَنْتَفِعُ بقَلْبِه : فلا يَنْظُرُ فيمـــا يَنبغِـــى أن يَنْظُرَ فيه ، ولا يَفْهَمُ ، ولا يَعِى – جُعِلَ كأنه قد عَدِمَ القَلْبَ جُمْلَةً ، كما جُعِلَ مَن لا يَنْتَفِعُ بسَمْعِه وبَصَرِه : فلا يُفَكِّرُ فيما يُؤَدِّيانِ إليه ، بمنزلـــةِ العـــادمِ لهما ؛ ولَزِمَ على هذا أن لا يُقالَ : " فُلانٌ له قَلْبٌ " إلا إذا كان يَنْتَفِعُ بقَلبِه:

---

(١) سورة ق :٣٧ .

فيَنْظُرُ فيما يَنبغِى أن يَنْظُرَ فيه ، ويَعِى ما يَجِبُ وَعْيُهُ ؛ فكان فى قَولِه تعالى: " لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ " تخييلُ أَنَّ مَن لم يَنْتَفِعْ بقَلْبِه كالعادمِ للقَلْبِ جُمْلَةً، بخلافِ نحوِ قَولِنا : " لِمَن كان له قلبٌ ناظرٌ فيما يَنبغى أَنْ يَنْظُرَ فيه، وَاعٍ لِمَا يَجِبُ وَعْيُهُ " . وفى نَظْمِ الآيةِ فائدةٌ أُخرى شَرِيفةٌ ، وهى : تَقْلِيلُ اللَّفْظِ مع تَكْثِيرِ المعنى) (١) .

وما ذكر الخطيب فى بيان التمثيل فى هذه الآية هو مزيج مما قال الإمام عبد القاهر عنها فى كتابيه (٢) .

وفضل قَولِه تعالى : ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ على تفسيره بقولنا : " لمن كان له قلب ناظر فيما ينبغى أن ينظر فيه واعٍ لما يجب وعيُه " أن هذا التفسير لايفيد فَقْدَ القلب من أصله ولا يخيِّلُه ؛ لأن الفَقْدَ فيه يَنْصَبُّ على القيد وهو فقد النظر فيما ينبغى أن ينظر فيه والوعى لما ينبغى وعيه ، ولا يَنْصَبُّ على المقيَّد وهو القلب ؛ فلا يدل على فقد القلب من أصله ، بخلاف نظم الآية فيدل على أن مَن لم يَنْتَفِعْ بقَلْبِه كالفاقد للقَلْبِ جُمْلَةً (٣) .

الاستعارة تخيل أن من لم ينتفع بقلبه مخلوق غريب ، مخلوق وُجِد بلا قلب ، وتلك صورة تثير الانتباه وتحث على ضرورة الانتفاع بالقلب فى النظر والتفكر والتدبر والوعى ؛ لأن القلب الذى لا يقوم بذلك ولا يمارسه قلب غائب مفقود لا وجود له ، ويلزمه أنه لا وجود لصاحبه ؛ وهل رأينا إنسانا بلا قلب ؟ إن ذلك لم يوجد ؛ فالاستعارة تدخل فى الغرابة من هذا

---

(١) الإيضاح مع البغية ٣/ ١٣٥ .
(٢) ينظر أسرار البلاغة ٣٦٣ ودلائل الإعجاز ٣٠٤ .
(٣) ينظر بغية الإيضاح ٣/١٣٥ .

الباب ، باب أنها تُوجِدُ شيئا لم يُوجَد من أصله وصفته ، تنشىء صورة غريبة فريدة . ولا تجد فى بيان قيمة النظر والتفكر والتدبر والوعى شيئا أبلغ من ذلك .

ولذا شدد الإمام عبد القاهر النكير على من فسر القلب فى الآية بالعقل ، ولم يحمل الكلام بجملته على المثَل ، وحكى الخطيب عنه ذلك فقال: (ونَقَلَ الشَّيخُ عَبْدُ القاهرِ عن بعضِ المُفَسِّرينَ أنه قال : " المُرَادُ بالقَلْبِ : العَقْلُ " ، ثُمَّ شَدَّدَ عليه النَّكيرَ فى هذا التفسيرِ ، وقال ذَهَبَ عليه أنَّ الكلامَ مَبْنِىٌّ على تخييل أنَّ مَنْ لا يَنْتَفِعُ بقَلْبِه فلا يَنْظُرُ ولا يَعِى : " وإنْ كان المَرْجِعُ فيما ذَكرناه عِندَ التَّحْصِيلِ إلى ما ذَكَرَهُ ، ولكنْ بمنزلةِ من عَدِمَ قَلْبَهُ جُمْلَةً ، كما تقولُ فى قَولِ الرَّجُلِ إذا قال : " قد غابَ عَنِّى قَلبى " ، أو: " ليس يَحْضُرُنى قَلبى " : " إنَّه يُريدُ أن يُخَيِّلَ إلى السامع أنه غابَ عنه قلبُه بجُمْلَتِه ، دُونَ أن يُريدَ الإخبارَ أنَّ عَقْلَه لم يَكُنْ هُناك ، وإن كان المَرْجِعُ عند التحصيلِ إلى ذلك ؟ وكذا إذا قال : " لم أَكُنْ هَهُنا " يُرِيدُ غَفْلَتَه عن الشىء ، فهو يَضَعُ كلامَه على التخييل . هذا معنى كلامِ الشَّيخِ . وهُو حَقٌّ؛ لأنَّ المُرَادَ بالآيةِ الحَثُّ على النَّظَرِ ، والتَّقْرِيعُ على تَرْكِه) (١) .

وممن قال إن (المراد بالقلب العقل) فى الآية الكريمة – الشريف الرضى (ت ٤٠٤ هـ) قال : (والمراد بقوله " إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ " أى عقل ولُبٌّ ، فعبر عنهما بالقلب لأنهما يكونان بالقلب ، أو

(١) الإيضاح مع البغية ٣/ ١٣٥ وكلام الإمام عبد القاهر فى أسرار البلاغة ٣٦٣ .

يكون المعنى : لمن كان له قلب ينتفع به ؛ لأن من القلوب ما لا ينتفع بـــه إذا كان مائلا إلى الغَىِّ ومنصرفا عن الرُّشْد) ([1])

والناظر فى كلام الإمام عن الآية فى الأسرار والدلائل يستدل من قوله فى الدلائل :(هذه مسألة قد كنت عَمِلْتُها قديماً ، وقد كتبتها هاهنا لأن لهـــا اتصالاً بهذا الذى صار بنا القول إليه) ([2]) يستدل على أن كتـــاب أســـرار البلاغة أسبق الكتابين تأليفا ، وأن الدلائل متأخر عنه ، بدليل أن الإمام نقل هذه المسألة التى كان عملها (قديماً) - أى فى الأســـرار - إلـــى كتـــاب الدلائل ، ولاحظ كلمة (قديماً) فهى تؤكد أن الدلائل خطه الإمام فى آخـــر عمره ، ويؤكد هذا قوله فى فاتحة الدلائل : (وقد وصَلْتُ بِأَخِرَةٍ إلى كـــلامٍ مَن أَصْغَى إليه وتدبَّره تدبُّرَ ذِى دِينٍ وفُتُوَّةٍ دعاه إلى النظر فى الكتاب الذي وضعناه) ([3]).

وأفاد صاحب الكشاف من كلام الإمام عن هذه الآية ، فدل كلامه على أنها من باب التمثيل ، قال : (" لمن كان له قلب " أى : قلب واع ، لأن من لايعى قلبه فكأنه لا قلب له) ([4]) . وفى هذا الموضع من الكشاف صـــرح الزمخشرى باسم الإمام عبد القاهر الذى يطبق الزمخشرى منهجه .

([1]) تلخيص البيان ٢٩٣ .

([2]) دلائل الإعجاز ٣٠٤ .

([3]) دلائل الإعجاز ص ٣ .

([4]) الكشاف ١١/٤ .

فهرس الشواهد القرآنية للاستعارة فى كتاب الإيضاح

مع ذكر الشاهد فى كل آية

* ترتيب الشواهد على حسب ترتيب الاستشهاد بها فى كتاب الإيضاح لجمع الشواهد المتناظرة فى مسألة مسألة ، لا على حسب ترتيبها فى المصحف الشريف .

١- قَولُه عَزَّ وجَلَّ : " اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ " الفاتحة آية ٦ ص٨

شاهد للاستعارة التحقيقية العقلية ، و " التحقيقية " هى التصريحية والعقلية لأنه استعير الصراط وهو محسوس للدين وهو معقول .

٢- قَولُه تعالى : " فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ "النحل :١١٢ ص١٠

شاهد لأمرين ، الأول : أن الاستعارة التحقيقية (التصريحية) تتناول أمرا عقليا ، أى أن يكون المستعار له (وهو المشبه) أمرا عقليا والثانى : (التجريد) وهو أن يذكر مع الاستعارة ما يلائم المستعار له (أى المشبه) ، فالتعبير بالإذاقة فى قوله (فأذاقها) يناسب المشبه وهو ما أصاب القرية من الألم والضر بسبب الجوع والخوف .

٣- قوله تعالى : " أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ " الأنعام : ١٢٢ ص٢٠

شاهد للاستعارة الوفاقية وهى التى يمكن فيها اجتماع المستعار له والمستعار منه فى شىء ، والاستعارة فى قوله " فأحييناه " بمعنى هديناه وفاقية لأن طرفى الاستعارة وهما الهداية والحياة يجتمعان فى شىء ، فإن الحى يصح أن يوصف بالهداية .

٤- قوله تعالى : " وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا " الأعراف : ١٦٨ ص٢٦

شاهد لكون الجامع فى الاستعارة (أى وجه الشبه) داخلا فى مفهوم الطرفين ، استعير التقطيع لتفريق اليهود فى الأرض بجامع إزالة الاتصال فى كل ، والجامع داخل فى مفهوم التفريق والتقطيع ؛ إلا أنه فى التقطيع أقوى ؛ لاستعماله فى إزالة الاتصال بين الأشياء المتماسكة .

٥- قوله تعالى : " فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ " طه : ٨٨ ص٢٨

شاهد لاستعارة محسوس لمحسوس بوجه حسى ، استعير العجل الذى هو ولد البقرة لما صنعه السامرى لبنى إسرائيل على صورة العجل وليس عجلا حقيقيا ، بجامع الشكل ، والجميع محسوس .

٦- قَولُه تعالى : " وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ "
الكهف : ٩٩ ص٣١

شاهد لاستعارة محسوس لمحسوس بوجه حسى ، استعير الفعل " يموج " لحركة الناس ، والجامع الاختلاط والاضطراب والتدافع ، والطرفان حسيان والجامع حسى .

٧- قَولُه تعالى : " وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا " مريم : ٤ ص٣٤

شاهد على أن الاستعارة فى (اشْتَعَلَ) ليست من استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسى ، وإن عدها بعض العلماء منها ؛ لأنه شبه انتشار الشيب فى الرأس باشتعال النار والوجه سرعة الانبساط مع تعذر التلافى ، والطرفان حسيان لكن الجامع (وهو سرعة الانبساط مع تعذر التلافى) عقلى .

٨- قوله تعالى : " وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ "

يس : ٣٧ ص ٣٩

شاهد لاستعارة محسوس لمحسوس بوجه عقلى ، استعير السلخ ، وهو كشط الجلد عن نحو الشاة لكشف الضوء عن مكان الليل ، وهما حسيان ، والجامع : مايعقل من ترتب أمر على آخر ، أى حصوله عقيب حصوله ، والترتُّبُ أمرٌ عقلى .

٩- قوله تعالى : " إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ " الذاريات : ٤١ ص٤٩

شاهد لأن الاستعارة فيها ليست من استعارة محسوس لمحسوس بوجه عقلى ، قيل : إنَّ المستعارَ منه المرأةُ ، والمستعارَ له الريحُ ، والجامعَ المنْعُ من ظهورِ النَّتيجةِ والأثرِ ، فالطَّرفانِ حسِّيانِ ، والجامعُ عقليٌّ . وفيه نظرٌ ؛ لأنَّ (العقيمَ) صفةٌ للمرأةِ لا اسمٌ لها . وكذلك جُعلت صفةً للرِّيحِ لا اسماً ؛ والحقُّ أنَّ المستعارَ منه ما فى المرأةِ من الصفةِ التى تمنَعُ من الحمْلِ ، والمستعارَ له ما فى الرِّيحِ من الصِّفةِ التى تمنَعُ من إنشاءِ مطرٍ وإلقاحِ شجرٍ ، والجامعَ لهما ما ذُكِر .

١٠- قوله تعالى : " مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا " يس : ٥٢ ص ٥٣

شاهد لاستعارة معقول لمعقول بوجه عقلى ، استعير الرقاد للموت ، والجامعَ لهما عَدَمُ ظُهورِ الأفعالِ ، والجميعُ عقليٌّ .

١١- قوله تعالى : " فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ " الحجر : ٩٤ ص ٥٦

شاهد لاستعارة محسوس لمعقول بوجه عقلى ، استعير الصدع وهو كسر الزجاج للتبليغ بجامع التأثير فى كل ، وكسر الزجاج حسى والتبليغ والتأثير عقليان .

١٢- قَولُه تعالى : " ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ " آل عمران : ١١٢ ص٦١

شاهد لاستعارة محسوس لمعقول بوجه عقلى ، استعير ضرب القبة على الشخص أو الطين على الحائط - وكلاهما حسى - لإحاطة الذلة باليهود واشتمالها عليهم ، وهو عقلى ، والجامعُ : الإحاطةُ أو اللُّزومُ ، وهما عقليان .

١٣- قَولُه تعالى : " إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ " الحاقة : ١١ ص ٦٧

شاهد لاستعارة معقول لمحسوس بوجه عقلى ، استعير الطغيان بمعنى التكبر والاستعلاء وهو عقلى ، لكثرة الماء وهو حسى ، والجامعُ الاستِعْلاءُ المُفْرِطُ ، وهو عقلى

١٤- قَولُه تعالى : " فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ "

آل عمران : ٢١ ، والتوبة ٣٤ ، والانشقاق : ٢٤ ص٧١

شاهد فى ثلاثة مواضع :

الأول : أن يستعمل الفعل فى ضد معناه أو نقيضه بتنزيل التضاد أو التناقض منزلة التناسب بوساطة التهكم ، وهذا الضرب من الاستعارة عند الخطيب من قبيل الاستعارة العنادية ومندرج فيها . فمعنى " بشرهم " : أنذرهم ، استعيرت البشارة - التى هى الإخبار بما يظهر سرور المخبَرِ به - للإنذار الذى هو ضدها بإدخاله فى جنسها على سبيل التهكم .

والثانى : أن الاستعارة التبعية فى الفعل تجرى فى المصدر قبل إجرائها فى الفعل نفسه ، لأن الاستعارة تعتمد على التشبيه ، والتشبيه فى الأفعال والصفات المشتقة منها لمعانى مصادرها . فالفعل (بشرهم)

استعير للفعل (أنذرهم) ويكون ذلك بعد إجراء التشبيه والاستعارة فى المصدر وهو التبشير ، حيث شبه التبشير بالإنذار بجامع الإخبار فى كل أو بتنزيل التضاد منزلة التناسب، ثم حذف المشبه وادعى أن التبشير نوع من الإنذار وضرب منه وداخل فى جنسه على سبيل المبالغة والادعاء ، ثم استعير التبشير للإنذار ، ثم اشتق من التبشير بهذا المعنى الجديد الفعل (بشِّرهم) بمعنى أنذِرْهم على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية التهكمية .

والثالث : أن المجرور يكون قرينة للاستعارة تمنع من إرادة المعنى الحقيقى للفظ ، فقوله " بعذاب " قرينة تدل على أن التبشير فى الآية غير مستعمل فى معناه الحقيقى ؛ لأن الإخبار بالعذاب لا يكون بُشرى .

١٥- قَولُه تعالى : " إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ " هود : ٨٧ ص٧٤

شاهد للاستعارة التبعية التهكمية فى المشتق ، لأن التبعية تكون فى الفعل والصفات المشتقة منه . الاستعارة فى لفظى (الحليم الرشيد) ، والمراد – والله تعالى أعلم – السفيه الغوى ، شبهوا السفاهة والغواية بالحلم والرشد بتنزيل التضاد منزلة التناسب ، ثم استعير الحلم والرشد للسفاهة والغواية ، ثم اشتق منهما (الحليم الرشيد) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية التهكمية .

١٦- قَولُه تعالى : " فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا "

القصص : ٨ ص٧٦

شاهد لكون الاستعارة التبعية فى الحرف تجرى فيما دخل عليه الحرف لا فى معنى الحرف نفسه كما هو مذهب السكاكى . الاستعارة عند الخطيب فى مدخول الحرف وهو العداوة والحزن ، شبه العداوة والحزن

بالعلة الغائية للالتقاط وهى التبنى وقرة العين ؛ ووجه الشبه مطلق الترتُّب فى كل ، ثم استعيرت اللام من العلة الأصلية وهى المحبة والتبنى فاستعملت فى العداوة والحزن على سبيل الاستعارة التبعية ؛ لأن الاستعارة فى اللام تبع للاستعارة فى المجرور .

١٧- قَولُه تعالى : " أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ " البقرة : ١٦ ص٨١

شاهد للاستعارة المُرَشَّحةُ ، وهى التى قُرِنَتْ بما يُلائمُ المستعارَ منه الاستعارة فى لفظ " اشْتَرَوُا " بمعنى اختاروا أو استبدلوا ، شبه الاختيار بالشراء لأن فى كل منهما أخذ شىء وترك آخر ، وهى استعارة تصريحية تبعية فى الفعل وذكر الربح والتجارة ترشيح لها لأنهما مما يلائم المستعار منه وهو الاشتراء .

١٨- قَولُه تعالى :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ " الحجرات : ١ ص٨٥

شاهد للاستعارة التمثيلية التى تسمى المجاز المُركَّب ؛ لأن الاستعارة فيها لا تكون فى الألفاظ المفردة كاستعارة الطيران للإسراع والأسد للشجاع والبحر للكريم ، بل تكون الاستعارة التمثيلية فى هيئة مركبة من أجزاء كل جزء فيها لا مجاز فيه لأنه مستعمل فى حقيقته اللغوية، وإنما تستعار الهيئة كلها لهيئة أخرى .شُبِّه من ترك اتباع الله تعالى واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يقف عند حدود الله تعالى ، بصورة من يتقدم فيقف بين يدى الله تعالى وبين يدى رسوله صلى الله عليه وسلم ، يضع نفسه موضع المتبوع لا التابع ، وفى هذا ما فيه من الجفاء والغلظة وسوء الأدب ، ثم استعيرت هيئة المشبه به لهيئة المشبه.

١٩- قَوْلُه تعالى :" وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" الزمر :٦٧ ص٨٨

شاهد للاستعارة التمثيلية ، شبهت هيئة الأرضِ فى تصرُّفها تحت أمرِ الله تعالى وقُدرتِه بهيئة الشىءِ يكونُ فى قَبْضَةِ الآخذِ له منَّا والجامعِ يَدَهُ عليه ، ثم استعيرت هيئة المشبه به لهيئة المشبه .

٢٠- قَوْلُه تعالى :" وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِه " الزمر :٦٧ ص٨٩

شاهد للاستعارة التمثيلية – كما فى قولِه تعالى : " وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " ؛ شبهت السماوات فى كونها تحت تَصَرُّفه تعالى وقُدرتِه بالكتاب المطوى فى يمين القابض عليه ، ثم استعيرت هيئة المشبه به للمشبه .

٢١- قَوْلُه تعالى :" وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ " الأعراف :١٥٤ص٩٣

شاهد للاستعارة التمثيلية ، شُبِّهَت الحالة الناشئة عن الغضب بالحالة الناشئة عن إغراء مُغْرٍ ، كأنَّ الغضبَ كان يُغْرِيه على ما فَعَلَ ، ويقولُ له : " قُلْ لقَومِكَ كذا ، وأَلْقِ الألْوَاحَ ، وجُرَّ برأسِ أخيكَ إليك " ، فترَكَ النُّطْقَ بذلك ، وقَطَعَ الإغْرَاءَ ، واستعيرت الحالة الثانية للأولى على طريق التمثيل .

٢٢- قَوْلُه تعالى :" إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ "

سورة ق :٣٧ ص ٩٧

شاهد للاستعارة التمثيلية – كما فى الآيات السابقة- شُبِّهَ من لم ينتفع بقلبه فلم يَنْظُرْ فيما يَنبغِى أن يَنْظُرَ فيه ولم يَفْهَمْ ولم يَعِ ، بمن عَدِمَ القَلْبَ جُمْلَةً ، ثم حذفت هيئة المشبه واستعيرت لها هيئة المشبه به .

فهرس الشواهد القرآنية للاستعارة فى كتاب الإيضاح

مرتبة على حسب ترتيبها فى المصحف الشريف

١- قَولُه عَزَّ وجَلَّ : " اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ " الفاتحة آية ٦ ص٨

٢- قَولُه تعالى : " أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ " البقرة : ١٦ ص ٨١

٣- قَولُه تعالى : " فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ " آل عمران : ٧١ ، والتوبة ٣٤ ، والانشقاق : ٢٤ ص ٤٩

٤- قَولُه تعالى : " ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ " آل عمران : ١١٢ ص ٦١

٥ - قوله تعالى : " أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ " الأنعام : ١٢٢ ص ٢٠

٦- قَولُه تعالى :" وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ" الأعراف : ١٥٤ ص٩٣

٧- قوله تعالى : " وَقَطَّعْنَاهُمْ فِى الْأَرْضِ أُمَمًا " الأعراف:١٦٨ ص ٢٦

٨- قَولُه تعالى : " إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ " هود : ٨٧ ص ٧٤

٩- قَولُه تعالى : " فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ " الحجر : ٩٤ ص ٥٦

١٠- قَولُه تعالى : " فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ " النحل:١١٢ ص ١٠٠

١١- قَولُه تعالى : " وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ " الكهف : ٩٩ص ٣١

١٢- قَولُه تعالى : " وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا " مريم : ٤ ص٣٤

١٣- قوله تعالى : " فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ " طه : ٨٨ ص ٢٨

١٤- قَولُه تعالى : " فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا "

القصص : ٨ ص ٧٦

١٥- قَولُه تعالى : " وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ "

يس : ٣٧ ص٣٩

١٦- قَولُه تعالى : " مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا " يس : ٥٢ ص٥٣

١٧- قَولُه تعالى :" وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ "

الزمر : ٦٧ ص٨٨

١٨- قَولُه تعالى :" وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِه " الزمر: ٦٧ ص٨٩

١٩- قَولُه تعالى :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِه "

الحجرات : ١ ص ٨٥

٢٠- قَولُه تعالى :" إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ "

سورة ق :٣٧ ص ٩٧

٢١- قَولُه تعالى : " إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ "

الذاريات : ٤١ ص ٤٩

٢٢- قَولُه تعالى : " إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ "

الحاقة : ١١ ص ٦٧

فهرس المصادر والمراجع

١- أدب الكتاب للصولى ٠ نشره محمد بهجة الأثرى ط دار الكتب العلمية بيروت

٢- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى ت محمود شاكر ط الخانجى ٠

٣- الإعجاز البلاغى د/ محمد أبو موسى ٠ نشر مكتبة وهبة ط ٠ ثانية ٠

٤- الإعجاز والإيجاز للثعالبى ط دار لبنان ودار صعب ٠

٥- الإيضاح مع البغية ط مكتبة الآداب ط خامسة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م ٠

٦- بيان إعجاز القرآن للخطابى ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن للخطابى والرمانى وعبد القاهر الجرجانى ت محمد خلف الله أحمد ود / محمد زغلول سلام ط دار المعارف ط رابعة ٠

٧- تحت راية القرآن للأستاذ مصطفى صادق الرافعى نشر دار الكتاب العربى بيروت

٨- تحرير التحبير لابن أبى الإصبع المصرى ت د / حفنى شرف ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ٠

٩- التصوير البيانى د محمد أبو موسى نشر مكتبة وهبة بالقاهرة ط خامسة ٠

١٠- تفسير أبى السعود ط ٠ دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م

١١- تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر ابن عاشـــور ط الـــدار التونسية ١٩٨٤ م

١٢- تفسير روح المعانى للألوسى نشر دار إحياء التراث العربى بيـــروت مصوَّرة عن دار الطباعة المنيرية بالقاهرة ٠

١٣- تفسير الطبرى ت د / عبد الله بن عبد المحسن التركى ط دار هجر ط أولى ١٤٢٢ هـــ ٢٠٠١ م ٠

١٤- تفسير الكشاف للزمخشرى ط مصطفى الحلبى ١٣٩٢هـــ ٠

١٥- تفسير مفاتيح الغيب للرازى ط دار الفكر بيروت ط أولى ١٤٠١ هـــ ١٩٨١ م ٠

١٦- تفسير نظم الدرر للبقاعى ط دار الكتاب الإسلامى مصـــورة عـــن ط دائرة المعارف العثمانية ٠

١٧- تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى ت د / على مقلد ط منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٨٦ م ٠

١٨- ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبى ت أبو الفضل إبراهيم ط دار نهضة مصر ١٣٨٤ هـــ ١٩٦٥ م ٠

١٩- حاشية السيد الشريف على الكشاف (مطبـــوع بعـــض صـــحائفها بحاشية الجزء الأول من الكشاف) ٠

٢٠- خزانة الأدب للبغدادى ت عبد السلام هـــارون ط الخـــانجى ط أولـــى ١٤٠١ هـــ /١٩٨١ م ٠

٢١- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى ت محمود شاكر ط الخانجى ٠

٢٢- دلالات التراكيب د محمد أبو موسى نشر مكتبة وهبة ط ثانية ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧

٢٣- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ت عبد المتعال الصعيدى ط ٠ صبيح ٠

٢٤- شرح الإيضاح لشيخنا الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ٠ نشر المكتبة الأزهرية ط ثالثة ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م ٠

٢٥- شروح التلخيص للتفتازانى والمغربى والسبكى والدسوقى ، نشر دار السرور ٠

٢٦- الصاحبى فى فقه اللغة لابن فارس ٠ نشر الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣ م

٢٧- صحيح البخارى ت د. مصطفى ديب البغا ط دار ابن كثير بيروت ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م ط ثالثة ٠

٢٨- صحيح مسلم ت محمد فؤاد عبد الباقى ط دار إحياء التراث العربى ٠

٢٩- الصناعتين لأبى هلال العسكرى ت البجاوى وأبو الفضل ط المكتبة العصرية بيروت ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦

٣٠- لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف ٠

٣١- المثل السائر لابن الأثير ت محمد محيى الدين عبد الحميد ط المكتبة العصرية ٠

٣٢- المستدرك على الصحيحين للحاكم ت مصطفى عبد القادر عطا ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٤١١هـ ١٩٩٠م ٠

٣٣- المطول للتفتازانى نشر المكتبة الأزهرية للتراث ٠

٣٤- مفتاح العلوم للسكاكى نشر حمدى قابيل ط المكتبة التوفيقية ٠

٣٥- من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم د / محمد الأمين الخضرى مطبعة الأمانة بالقاهرة ٠

٣٦- الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى للآمدى ت السيد صقر دار المعارف ط رابعة

٣٧- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المُنَيَّر ٢/ ١٢٠ مطبوع بحاشية الكشاف ٠

٣٨- نظرات فى البيان د عبد الرحمن نجم الدين الكردى ٠ مطبعة السعادة ط ثانية ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م ٠

٣٩- النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ط دار المعارف ٠

٤٠- نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للرازى ت د/ أحمد السقا ط المكتب الثقافى بالقاهر ط أولى ١٩٨٩ ٠

قال أبو أحمد / سلامه جمعه على داوود :

تم الفراغ من كتابته صباح الثلاثاء الخامس من شهر رجب ١٤٢٩ هـ

الثامن من يوليو ٢٠٠٨ م بالقنفذة / إمارة منطقة المكرمة / المملكة العربية السعودية

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ٠